

الطبعة الثالثة

السجن

نبيل سليمان

السّجن

رواية

دار الفارابي - بيروت
١٩٨٢

الغلاف للفنان طلال معلا
الطبعة الاولى ــ ١٩٧٢
الطبعة الثانية ــ ١٩٧٩
الطبعة الثالثة ــ ١٩٨٢

الفصل الأول

يا جبـل المـرام ..
اليـك انشـدت ابصارنـا بأمراس المستقبل والعناد ..
ولقد ربضتَ منذ اول التاريخ هنـا ،
ولم تكن صما عن نداءاتك على الدوام ..
كانت محـل العراء الذي تشكو اليوم
مرابع من كـل لون ، وهناءات بلا حدود ...
يا جبـل المـرام :
تنفرز اليوم في انحائك اظافر وحشية ..
سدّت الطريـق الـى قمتـك ..
نتنت الارض هنـــا ..
استنقـع المـاء الراكـد فـي اقـدم مـدن العالم ..
محرم ان نلـزم القرارة زمنـا آخـر ..
ان الاوكـار تطفـر مـن سفح المدينة ،
ومـــن سهلهـا ..،

ولم يبـق الا أن نغـادر الى فـوق ..
اجـل ، ومـا أن يكون الصعود ،
حتـى تنتزع الاظفـار ،
وتنمهد الدروب ،
وتورد الايـام ...
وتورد الايـام ...

الاغنية ملء كيانه .. هزّته الرعشة عندما لمعت في خاطره صورة الايام الموردة ، ورفع عينيه الى الجبل الذي يسد منافـذ الافق الشرقي ..

جبـل المـرام ..!

متى سماه كذلك ؟ العاشق الفر .. أي هوىً هـذا الـذي تملكه منذ أن ودع طفولته المرّة ..؟ وصافح بصره الاوكار المنتشرة في خاصرة الجبل اليسرى .. هل عشق المنحوسون فيها القمـة الحبيبة قبلي ..؟ وعرج على الخاصره اليمنى ، مرغما ، كأن قـوة مجهولة تشده .. أنه السجن

وزفـــر مرتـين ..
كان الهمّ في الاولى ...

وكان العزم في الثانية ... ثم باعد بين قدميه وتأبط كفيه، مصمما أن يديم هذه الوقفة ، طيلة دقائق الانتظار المتبقية . الساعة توشك ان تشير الى السابعة . ادرك ذلك بحدسه الذي اكتسب دقةً كبيرة في التوقيت ، منذ ان بدأ قبل خمسة شهور الرحلة . كان منزويا في وقفته وانتظاره خلف ركام عال مـن مواد البناء ، والظلمة تغلفه . وقد كان يحس دائما أنه مدين لهـذه البقعة مـن السفح .. ان من الصعب حقا ان تقع على ركن أمين في مثل هذه المدينة .. الاضواء الساطعة ليست بعيدة من هنا .. أمتار قليلة خلف هذا الركام ، ويرتمي في قلب الساحة .. كيف يغدو الامر

بعد ان يقوم البناء في هذه القطعة ، ويشعلها النور ..؟ اكتأب ،أذ عبر هذا الخاطر صدره .. لكنه ارخى من كتفيه المتعبين ضحكة ساخرة .. هل سأقضي العمر ابحث عن الاركان الامينة في هذا السفح .؟ لن يتحول هذا الركام عمرانا وانوارا قبل سنين ، فهل ستمتد الرحلة حتى تلك الايام ..؟ وافاق على صوت غير بعيد ، فأيقن ان عابدا قادم . لا شك انه تأخر هذه المرة أكثر من كل ما فعل في الماضي .. بيد انه جاء على كل حال .. والتفت ناحية الصوت .. حاول بصره ان يثقب العتمة . لكنه ارتد مخيباوعندما استوى راسه ثانية ، سمع دقة قلبه ، فارتعش ، وانشد بغتةً عكس الناحية التي يتطلع فيها .. لم ير شيئا .. تزعزعت وقفته الواثقة، وتراجع خطوة ، وانصت ، فلم يقع على غير الصمت .. حتى الصوت الاول اختفى .. أيكون الوهم قد رسم له..؟عابد لا يشعل مصباح سيارته عندما يلج هذا الدرب الوعر . لقد قال مرارا انه يود لو ان المحرك يخرس حين يكونان معا .. وحاول وهب ان يمتلك هدوءه ويسترد الثقة المفقودة ... كم لعبت بالاعصاب الاوهام والتوجسات والظلمة والمواعيد ... في المرة الاولى كاد أن يبرح قبل الموعد..كانت ريبته كبيرة .. حتى الاحجار واكياس الاسمنت وكومات الاخشاب التي تستره أرتاب فيها يومذاك .. عابد نفسه لم يسلم من الشكوك .. وقد آلى ان يدرس قبل اللقاء الثاني هذه القطعة شبرا شبرا . خلفه ـ استدار وتملى ـ حفرة كبيرة .. واسوار المنازل مرتفعة .. الى جانبيه الدرب مفتوحة وسالكة ، ولكن يمينه ـ التفت بحدة ـ يفضي الى قلب المدينة .. يفضي الى الساحة المفضوحة .. وتسمر راسه صوب اليمين .. الدرب موصدة هذه المرة .. كيف .. لا ريب في ذلك .. لقد راى ملء عينيه سيارة تسد عرضه .. ليست هذه سيارة عابد .. عابد لا يأتي من هنا .. وتجمد .. أيكون وهما أيضا . لا .. حاول ان

يتحرك فعجز . لم يلعن قلقه وريبته . ورغم أن صوتا قد توضح في الطرف المقابل ، في اللحظة نفسها ، فقد تصلب فترة طويلة ، وعندما هم ان يلتفت ، كانت سيارة عابد تتسلل موشكة ان توازيه .. فاطلق نفسا ، وجدف . ثم مد قدمه ليلاقي السيارة ، لكن نوراً ساطعا انصب فوقه بغتة ، وغمر المكان بكامله ، فرأى عابد داخل السيارة محتضنا المقود ، لا ينظر اليه ، ورأى كومات التراب المنتشرة ، والحصى والاكياس ، وقضبان الحديد .. وفي الطرف الآخر رأى سيارة تقطع عرض الدرب .. لم يبحث عن مصدر النور .. ايقن انه قد وقع في الفخ . لم تسلم الجرة هذه المرة . بيد ان حضورا فجائيا امتلكه .. احس ان شيئا داخل جمجمته يتوقد . قاد قدميه الى موازاة السيارة ، همس دون ان يحرف عينيه .

ــ تدبر امرك واتركني .. لقد وقعنا ..

واوشك ان يتابع ، عندما استوقفه نداء حاد من داخل السيارة .

ــ لا تتحرك ..

لم يكن صوت عابد .. انلجم .. ولم يفكر في ان يستدير .. سمع باب السيارة يفتح ، ثم يغلق ، ثم سمع صوتا يأمره برفع يديه ، فاستجاب بعد لحظة ، وهربت من راسه كل المخططات ، ورأى شابا طويلا ، نحيفا ، يأتيه من الخلف شاهرا مسدسه ، هو وظله ، بينما تقدم منه ثلاثة آخرون ، شاهرين اسلحتهم ايضا ، ثم سمع صوت الكلبجة فوق معصميه ..

- ٢ -

زجّ وهب بفظاظة في القسم الخلفي من سيارة لا ندروفر صغيرة ، بينما جلس الشاب الذي كان يصدر الاوامر في القسم

الامامي . اما الثلاثة الآخرون فقد احاطوا بالغنيمة الجديدة من كل جانب. خيم الصمت لحظة، سمع بعدها وهب هدير سيارة عابد ، ثم اختلط عليه بهدير سيارة اخرى .. كان رأسه مشدودا الى أسفل ، ولكنه مع ذلك كان يبصر ما حوله جيدا . وأحسّ بالاسف لانه لم يمتلك هذه الرؤية كلها قبل قليل ..

ــ انت وهب اذن؟ عظيم ايها الرفيق.. أنت تعرفنا بالطبع؟.

جاءه الصوت ، من ناحية الشاب ، مشحونا بالاستفزاز والسخرية ، فاذن للغيظ أن يتكوم في نواحي الصدر ، بتسارع حاد .. (كان هذا الوقح مع عابد فهل تركه وحيدا ؟ أوليس معه الآن من يقول له هذا الكلام الرائق ..)

اردف الشاب .

ــ أنا ..

فقاطعه الرجل الذي يجاوره في المقعد .

ــ النقيب هاشم ..

صوت الجارخشن . تريث وهب في ايماءة الرأس . ضحك النقيب ..

ــ معرفة سابقة ..؟ هه ..؟

أجل ، لقد عرفتك يا سيادة النقيب .. وهل فينا من يجهلك .. صيتك ذائع في كل خلية .. وليس فينا من لم ير وجهك او يطالع صورتك .. لقد وصلت اليك اخيراً .. رائع .

لم يتح لوهب ان يسترسل .. قال النقيب وهو ينظر الى الامام :

ــ لماذا ورطت المسكين ؟.. لماذا تفعلون دائما ..؟ الناس في بيوتها آمنة مطمئنة حتى تأتي سوستكم فتخرب الاول والآخر .. قرر وهب الا يستمع ، والتفت خلفه باحثا عن المسكين المورّط ، لكنه وقع على سيارة لاندروفر اخرى .. اتراها كانت ترصد في

الزاوية الثانية ..؟ حاول أن يتمعن فـي رتل السيارات الـذي انتظموا فيه ، منذ دخلوا الساحة ، لكن الرجل المقابل لكزه منتهراً:

ـ سيادة النقيب يكلمك .. أطرش ...؟

فوجيء باللكمة .. لم يتألم ، ولكنه صبّ عينيه فوق الرجل، الذي أردف مشيراً صوب النقيب ، كأن شيئاً لم يكن .

ـ هناك . انظر هناك ...

انصاع وهو يزداد اضطرابا واثارة ... ثم وجد انـه على النحو الجديد ،يستطيع أن يتملى من الشارع والسيارات والدكاكين والناس بصورة افضل .. وفكر في ان سيارة عابـد قـد تكـون هناك .. حيث لا يستطيع بصره ان يدركها .. بيد انه لم يشك في انها آتية الى حيث تذهب هذه السيارة به ..

ـ أرجو ان تكون عاقلا مثل رفيقك ..

سمع النقيب يخاطبه .. اجلْ .. استمر في تلصصه عبـر زجاج السيارة ، الامامي ، خمسة شهور من الحرمان والتخفي .. استشعر غصة حادة في قلبه ، لانه التقى بالدنيا ، بعد انتظار مـر عكس ما كان يرسم .. بلع ريقه واوشك أن يتعزى ، مغريا ناظريه بالتهام كل ما تقعان عليه .. انه يبصر جيدا .. حتى السيقان التي تبرق تحت اضواء النيون ، والاعلانات الكهربائية ترتسم لـه حارة آسرة . ويبدو أن استغراقه طال، فقد التفت صوبه النقيب محتدا وصرخ به :

ـ الا ترد يا كلب ؟

وقبل ان يفيق من المفاجأة ، سمع تحقيرا اقذر مـن الذيـن يحيطون به ، ولمح تهديدا بالضرب ، ثم رأى النقيب اخـيرا يوصي بالصمت ، والانتظار ، فأحس بالامتهان ، وانقلب غيظه قهرا ، وود لو انه كان يقدر ان يخرس هؤلاء ، لفعل اذن ، ثـم نمت نقمتـه ، لتصفع كل الذين يتسببون بالقهر والامتهان ..

- ٣ -

ـ انت مصمم على ان تكون وهبا فقط ..؟
سأله النقيب ، وقهقه ثم اردف :
ـ فكر جيدا ايها المغفل .. لقد فقدت ذاكرتك سريعا .. ماذا رايت بعد حتى تنسى شخصيتك .؟
وكاد اللبس ان يأخذ وهب حقا .. « انت لست وهب .. انت آدوار صاحب الصيت الذائع .. أنت المسؤول عن تنظيم هذا البلد كاملا . » يلزم ان اشكرك يا سيدي النقيب .. لقد اعليت شأني ايما أعلاء .. لكنني لست آدوار ، ولست المسؤول .
انني وهب ، العضو العادي الذي تعرف لا بد ، حقا ..
احتقن وجه النقيب ، وكان عناد المعتقل الجديد يغيظه ، ويقتل الوقت هباء .
ـ متى دخلت البلاد ..؟
ـ لم ابرحها من قبل ..
ـ ومن كان في لبنان يرسل المال والمناشير يا دجال ؟
لقد اراد حقا أن يذهب الى لبنان . وفي لحظات آخرى (نادرة) تمنى ان يذهب الى اي مكان .. اراد ان يقفز فقط فوق خط الحدود هاربا من هذا الجحيم ..
ـ تستطيع أن تتأكد .. هذا عنوان ..
لم يتح له أن يكمل .. النقيب نزق .. جنونه وشيك خلاف ما أوحى في السيارة ..
ـ عنوانك عندي ايها الابله .. هل تحسب نفسك ذكياحقا؟
طمس التزوير وهبا .. ينبغي عليك ان تتخلى عن شخصيتك الحقيقية لترضي الضابط المحقق .. لا بأس أن تنزع جلدك حتى يصدقوك .. النقيب في عجلة من امره .. انه يريد أن يفرغ منك

سريعا .. انت غنيمة فوق العادة . يريد ان يحقق بك سبقا ،وربما رتبة .. وربما .. لقد امتد الصمت بك حتى بلغ السيل الزبى.. وها هو يقف ضاربا زجاج مكتبه بكلتا قبضتيه ، فيتحرك لوقفته الرجال الثلاثة ، الذين كانوا متوزعين في أنحاء متفرقة من الغرفة الكابية. حار وهب .. هل ينهض هو ايضا ؟ام يستمر مكوما فوق المقعد الخشبي قرب المكتب ؟ تذكر في ومضة ، آخر ما تعلمه عن المحققين « قبضت على رئيس المنظمة يا سادتي .. انتزعت اعترافه ولسانه فهاكم » .

خاطبت عيناه النقيب وهو يحدق فيه «سيكون من العسير ان تقول لهم ذلك . » . وفي ذات اللحظة اخترقت أذناه صيحة :

ـ قف يا وغد ..

فشب وتعثر بالمقعد ، وخطف ناظريه بين النقيب الذي راح يتقدم نحوه ببطء ، وبين الرجال الثلاثة الذين اخذوا يتقاربون ، وهم يتقدمون صوبه ايضا . همّ في ان يتراجع ، لكن الاباء أوقف قدمه في اللحظة التي أوشكت ان تتحرك فيها .. ثم تذكر وهو يراهم امامه جميعا أن الجدار لن يسمح له بالتراجع . لقد كان الجدار لصق ظهره . أعيدوا له ذاكرته (خاطب النقيب رجاله).. كنت اود أن اجنبك يا منحوس . (تابع مخاطبا وهب) .

انتزعه أضخمهم جثة من الجدار ، وقذف به في وسط الغرفة .. لم يرتم .. لقد كانت دفعة هائلة .. عجب لذلك .. الا ان قبضة اخرى ، اكثر هولا ، لم تفسح له .. هرست خده الايمن هرسا .. واحس ان تشويها فظيعا لحق بسحنته،حاول أن يتلمس الناحية التي لا تزال سليمة ، فسبقته اليها خبطة ثالثة .. (هذا طعمكم جميعا) خاطبتهم عيناه اللتان لم تكادا أن تقعا على النقيب ــ كان يبحث عنه بجنون ، لغير ما سبب معروف ــ حتى كان قد انطرح فوق البلاط على قفاه ، وقد احس ان شيئا في جوفه يتلوى

ثم يتقطع .. اراد ان يحمي بطنه بكفيه لكن الرجل الضخم ،اولهم، شده من شعره ، واوقفه سويا ، فأيقن ان الدم قد تفجر من جلدة راسه ، ثم شرع الآخران يهويان بمطارقهما فوق فكيه ، وصدغيه، بينما كان يحول شعره المشدود دون رغبته التي قاربت البكاء ، في السقوط . تكاثفت الرؤى امام عينيه ، فابصر النقيب جالساخلف مكتبه ، يتبسم ، ثم يضحك ، ثم رآه قبالته تماما ، وعجبب من انـه تدلى عقب ذلك مباشرة من المصباح الكهربائي الشحيح الذي يهتز فوق رأسه ، وسط الفرفة ، وازداد عجبه من ان النقيب لا يسقط رغم هذه الوضعية اللا معقولة .. ثم اغمض عينيه وأذنيه ، وابتعد عنهم ، حتى وصل الى قمة عالية ، قبلها وأشرف منها على جلاديه، وهم يتعاركون بوحشية ، فرثى لهم ، وللوهدة التي يترددون فيها ، وادهشه أن الارض تخسف بهم ، بينما تعلو بـه القمـة وتنأى .. اتراها كانت قمة جبل المرام ..؟ وامتد به السؤال دهرا ، قبل ان يفتح جفنيه على صوت النقيب يأمر :

ــ انهضوه وهاتوه ..

وقبل ان تتحسس آليته جيدا طعم المقعد ، وتهش ، سمـع النقيب يخاطبه :

ــ ها أنت ترى انك لم تتحمل وجبة واحدة .. جسمك غض على الرغم من سنيك وشبابك .. تعقل يا مجنون .. ماذا يجديك ان تنكر .. نحن نعرف جيداً من أنت .. نعرف دخولك الحدود. ونعرف من دبج ودبر المناشير اللعينة .. لا تظنن انك أتيت شيئا فاتنا .. في الخميس الماضي ، وفي الساعة السابعة أيضا ــ أخذ يحتد ــ نفسها اين كنت ؟ الم تركب سيارة عابد حتى الجسر الجديد ؟ وقبل ذلك باسبوع ايضا ماذا اعطيته على طريق المطار ؟

تذكر وهب بصعوبة ، ومن خلال الالم الكثيف ، ان النقيب قال له هذا الكلام او ما يماثله منذ فترة غير بعيدة .. وتذكر انـه

فهم حينئذ سبب وقوعه في الفخ ، وعرف الرفيق عابد كما لم يعرفه من قبل .. سأله النقيب :

ـ الا تزال مصرا على انك وهب فقط ؟

ثقل الضيق على صدره .. هل يجهل الانسان هويته بعد اربع وعشرين سنة ؟ لماذا كل هذا التزوير ـ سأل سقف الغرفة ـ لست ادوار يا حضرة النقيب .. بماذا تريد ان اقسم لك .. ابي عفيف المختار وامي نجمة وقريتي على دقائق في سيارتك من هنا .. قذف وهب بهذا كله ، دفعة واحدة ، وكان يحس ان كلامه يخرج ممتزجا بنثار بصاقه المشوب بخيوط باهتة الحمرة ، كما ان حركة فكيه سببت له وجعا ، اسرع في اسكاته .. لكن النقيب أصر .. لا شك أنك مخطيء يا وهب .. النقيب ادرى بك من ابيك وامك .. أنه ادرى بك منك .. ولقد آن لصبره ان يفرغ حقا .. فعنادك مغيظ .. بل مهين ..

ـ حيوان .. لا ينفع معك الكلام .. الا تعرفون ماذا ينفعه (خاطب عناصره) خذوه الى الصالون الداخلي .. نهض وحده .. قبل أن يصلوا فعل .. ونوى ان يسير .. ولو كان يدري اين يقع الصالون الداخلي لهرع اليه .. لكن اخلاصه وطواعيته لم تمنعا عنه أذى الطريق .. خرج من الغرفة ، وعبر ممرا ضيقا ، مع الركلات التي كانت تتقاذفه بين الجدارين .. كانت الظلمة تشتد كلما اوغلوا ، حتى اذا ولجوا باب الصالون باغته نور باهر .. وتعجب من فساحة المكان .. كما راقت له الجدران المزدانة بما يجهل .. طرحوه ارضا ، وداعب احدهم راسه بطرف حذائه ، غير متلطف ، ثم دحرج آخر من الزاوية دولابا اوقفه جسم وهب ، الذي صار يحس بالانفصال شيئا فشيئا .. اراد ان يتفرج عليهم .. آدخلوا رجليه في الدولاب ،ثم

كوروه جيدا ، وحشروا راسه .. حسد نفسه لانه نحيف .. لا ريب أن (مسعد) عانى آكثر بسبب سمنته .. اكتشف انخاصية المرونة فيه عالية .. صار يتدحرج الآن مع الدولاب .. اضحكته اللعبة ، كما آدمت قلبه ، واثارت الضحكة التي لم تتعد شفتيه غيظ الرجال . تناولوا جميعا الخيزرانات وشرعوا يتسابقون أليه كانت قدماه في البداية الفضليين .. لكن جسمه بأجمعه صار يستهويهم .. حتى رأسه استمال خيزراناتهم الملتهبة .. وكأن استفراقهم بالعمل كان يشحذ همتهم .. ويفجر ابدأعاتجديدة.. غاضت الضحكة من قلبه .. وتقبض صدره ، وعرف ان اضلاعه تتحطم ، فخشي ان يدخل احدها في كبذه أو في فؤاده . لم يعد المكان فسيحا .. ولم تعد زينة الجدران معجبة .. أطبق الكلح حتى غطى عينيه ورأسه ، ثم عمّ انحاء جسمه ، وما أن غلفالسواد كل شيء ، حتى كان الالم قد نفذ ، وكان عناده قد أكتمل ، اما ايدي الرجال فكانت لم تكلّ بعد . وعندما افاق بعد زمن ، لقي نفسه غارقا في الماء ، كما تحسس دما طريا خلل آسنانه ، وفي باطن جفنيه ، واراد أن يتخلص من الدولاب ، لكن صوت النقيب قطع عليه محاولته :

ـ ساغيب قرابة الساعة .. عندما ارجع يجب ان يكون قد اعترف او أنتهى .. مفهوم ؟

فجلجل صوت الرجال الثلاثة :

ـ حاضر سيدي ..

وحينئذ أرخى وهب جفنيه ..

ـ ٤ ـ

كانت اللعبة لا تزال مستمرة حين سمع أمرا بالتوقف .. كان الامر مفاجأة له .. وكان يكابد من اجل أن يبقى امينا على كل

ما تعلم في المخابيء السرية واجتماعات المنظمة .. ان صرخت فسيشمتون بك .. وان بكيت فتلك بداية غير حميدة .. فقط كزّ على أسنانك .. لا تصدق دعاوى الاطباء ، فتلك اسنان البورجوازيين يضرّ بها الضغط .. كن محايدا ، فبذلك تنتهي اللعبة بربحك . لم يكن الصوت الآمر للنقيب هاشم .. استطاع أن يميز على الرغم من استغراقه الكامل ..

ـ من ؟

سأل الصوت الجديد .

ـ يقول أنه وهب يا سيدي ..

ـ متى قبضتم عليه ؟

ـ منذ ساعتين سيدي ..

كان الصوت يزداد ألفة لديه ، وقد اسف لان ذاكرته لا تعمل جيدا .. سمع الخبطات تقترب منه ، وعرف بعد هنيهة انها وازت رأسه .. لم يشأ ان يرفع عينيه .. اراد أن يمارس كل عناده .. لقد قالوا أن الجولة الاولى لا تستحق أن يبذل فيها كل العناد ، فتأتي الجولات التالية آذن وهو خال .. لكنه على الرغم من العلم ، والانضباط ، لم يرفع عينيه ، وطال التصاق القدمين الجديدين بجسده . ثم سمع الصوت متأنيا :

ـ وهب .. حقا ..؟

وتلا امر باخراجه من الدولاب ..

فاق الم ظهره وخاصرتيه وهو يتمدد كل ما تسببت له به خيزرانات وقبضات هؤلاء .. وآثر ان يعصر جفنيه أولا ، ثم ان يزفر طويلا قبل أن ينظر الى الوجه الجديد .. لقد حضرت الصورة الآن تماما ، عرفه .. لكن شفتيه ظلتا مزمومتين .

ـ أنا عبد المنعم .. ألم تعرفني يا وهب ..؟

لم يرد .. لا اشارة ولا نبسة .. خمنّ الرائد عبد المنعم أن

الرجل قد تردى كثيراً .. ولذلك امر بنقله الى المكتب . وهناك طلب له الماء والشاي ، وقدم له سيجارة فاخرة .. رفض وهب السيجارة ، فاكتفى الرائد بأن انتزع من الجيب المتسع علبةسجائر كانت نابقة الراس ، ورماها فوق المكتب ..

ـ لقد عرفتني .. اليس كذلك..كيف حال اخيك مسعد؟.

وحيدان هما .. والغرفة أثرى من تلك التي جلس فيها أمام النقيب هاشم .. ليس ثمة ما يزرع الرهبة .. حتى الاوجاع والرضوض وخيوط الدم في انحاء جسده الفها جميعا .. وتعجب لهذه الالفة السريعة .. الرائد عبد المنعم ازداد هيبة مع السنين . يذكره اكثر فتوة وجاذبية .. لم ينفر منه الآن فقط .. منذ زمن اذاعت المنظمة خبر الجلاد الرائد عبد المنعم .. تبرأ منههو ، وتبرأ اخوه مسعد ، وانكره الناس جميعا .. فانكرهم هو ايضا .. لكن الرائد عبد المنعم نفسه ، ابن قريتك البعيد ، هو الذي يتلطف معك الآن ، ويتودد اليك ويخفف عنك .. اطراقة وهب تنتظر .. والرائد يقول :

ـ انني هنا المسؤول الاول . لا شك أن حسن حظك هو الذي قذف بك اليّ .. دعنا نتفاهم منذ البداية ولنتعامل كأقرباء واصدقاء حقا .

قال وهب : لكنني لست ادوار .. انت تعرف ذلك ..

فرد الرائد سريعا :

ـ اتركنا من حكاية ادوار والنقيب هاشم .. انا آسف (اخفض صوته) لما وقع لك بسبب ذلك .. ما يهمني امور اخرى فلنختصر الدرب .. قل لي يا وهب (اتخذ هيئة جديدة) مع من كنت تعمل خلال الشهور الخمسة الماضية ؟

هزّ وهب رأسه مرغما .. ليس يدري هل هي هزة الضحك ام السخرية ام الاستنكار ؟ انت طماع يا سيادة الرائد .. كل ذلك

تريدني ان افضي به اليك .؟ وبهذا اليسر .؟ ودفعة واحدة ؟ وعلى كل حال فانت تبدو اكثر معقولية من ذلك المعتوه الذي اراد ان يبدل جلدي .

ـ كنت وحيدا ..

كشر الرائد وهو يحاول ان يبتسم ، ونطق بكره واضح ، اخفقت معه محاولات الاخفاء :

ـ الم يحفظوك اقوالا أخرى ..؟ هذه سمعناها كثيرا .. كل جنّي من هذه المنظمة الملعونة يعمل وحده .. حتى الذين نعتقلهم وهم مجتمعون يقولون أنهم يعملون منفصلين .. العمل الفردي ليس مجديا ..

ـ صحيح يا وهب ؟

لم يجب وهب ...

فعلا صوت الرائد وقد لونه الانفعال الحبيس . لا تحرجني يا عزيزي .. اجبني باستمرار .. أنتم في منظمتكم تؤكدون أن الجماعية هي وسيلتكم لا الفردية .. وهنا انت تدعي العكس .. هل تريدني ان اصدقك .. لا .. ليس كذلك .. هيا وقل اذن مع من كنت تعمل ..؟

وحرك راسه ويديه على نحو آثار الاشمئزاز .. تابع وهب الصمت واكتشف اثناء ذلك غباء الرائد الذي انتظر طويلا قبل ان يقول بلهجة جديدة .

ـ طيب هذا تركنا منه . سنعود اليه فيما بعد .. من الذي كان مسؤولا عنك ؟

رد وهب وهو مطرق :

ـ لا أحد .

تمعن الرائد في العينين اللتين لم تبارحا الارض .. واحس ان حقده يتنامى ، فزفر زفرة مسموعة ، وسأل :

ـ وأنت عمن كنت مسؤولا .
نفى وهب ايضا ، لا أحد .
سأل الرائد :
ـ وماذا عن علاقتك بعابد .
تأرجح وهب قليلا بين الانكار والتوضيح ، ثم آثر الدرب المختصرة :
ـ لا علاقة لي به ..
فهم الضابط في ان يصدر أمرا ، لكنه كان يؤثر ان يدع ذلك احتياطا اخيرا ، وانقضت هنيهات مشحونة ، غير قصيرة ، وكلاهما مطرق ، ثم قطع عبد المنعم أحجامه ، ونهض ورمى عقب سيجارته (الذي كان لا يزال طويلا) امام عيني وهب وقال مشددا على مخارج الحروف ومحدقا شر تحديق :
ـ غبي .. اغبى من رايت ..

— ٥ —

طال لبثه في مكانه ، وامتد الانتظار ، لكنه لم يثقل .. الحركة في الخارج لم تفتر ، والاصوات ايضا . فتش عن بقايا القوة في جسمه فلم يجد .. ادرك انه خسر كثيرا ، وخمن أن اشتباه النقيب به كلفه غاليا . « لولا الشبهة لوفرت نصف ما لقيت على الاقل » حتى الافكار لم تعد منضبطة .. حاول ان يعود الى عابد ، الرفيق الخائن ، فلم يمكث معه طويلا . جال في القبو الذي ايقن انه سيكون مستقره الاخير ، لكن خياله كان كليلا .. وعندما انفتح الباب آخيرا ، وتسرب ضجيج اضافي احس بالارتياح .. والانقاذ .. لفت راسه بصعوبة ، فوقع على الرائد نفسه ، وخلفه رأى كهلا . تفرس في الوجه الجديد وشك في أن يكون من معذبيه

.. جلس الرجل قريبا منه ، اما الرائد فقد استوى جيدا خلف مكتبه ، وتنهنه ، وادار كرسيه مرتين الى الجانبين قبل ان يسأل وهبا :

ـ الم تعرفه ..

هز وهب راسه نافيا . قال الرجل :

ـ كيف حال أخيك مسعد ؟

قال الرائد :

ـ الرفيق غنيم ..

وصعق وهب ..

استدار بحدة الى الرجل ، واراد آن يأكله بعينيه .. ارتد غنيم مجفلا ، وتبدلت ملامح وجهه . كان الرائد يلاحقهما مأخوذاً ولم يلبث ان قال :

ـ لا اشك في انك ان كنت لا تعرف الرفيق غنيم وجاهيا ، فانت تعرف عنه من منظمتك ما يكفي .. لقد كان في طليعة المؤسسين يا وهب .. اليس كذلك ؟

ـ لم ينتظر جوابا ـ وكان عضوا بارزا في القيادة العليا .. كم سنة بذلت من ربيع شبابك يا غنيم ـ لم يتوجه بالسؤال الى غنيم .. كان وهب المقصود الحقيقي ..

ها هوذا حينما تيقن من انه قضى كل هذا العمر في ضلال، وهدر كل جهاده من غير طائل .. ملك الشجاعة وردع نفسه وانسحب .. ودعا كل العاقلين فيكم الى ان يسيروا سيره .. (كان صوت الرائد قد علا) لقد مد يده الينا ، فساعدناه واكرمناه .. ونحن نعف دائما .. بل ونعين كل من يتوب ..

كان وهب يود وهو يستمع الى الرائد ، أن يلتفت الى الرفيق غنيم ثانية ، وان يتملى منه جيداً .. لقد انتظر في الماضي طويلا ان يجتمع بالقائد غنيم .. كان يحلم به في سنيه الاولى، وبالرفاق

الاوائل الآخرين .. لكن غنيم سقط .. انهار منذ اكثر من سنتين .. قوضت عمدة الاقبية والسجون ، وشجاعته .. وليت البليه كانت به وحده .. لقد انقلب دميه في يد هؤلاء ، يلوحون به امام عيني كل معتقل جديد .. ها هوذا رفيقكم الاعلى قد ارعوى فاقتفوا اثره .. ران الصمت .. واغتبط الرائد في سره .. (أن وهب قد بدأ يفكر .. كم توفر علينا ايها الرفيق غنيم .. كيف سيكون خذلان النقيب هاشم ..) ولكن غنيم لم يكن قد صحا بعد من سوط وهب .. لقد لسعه بتلك النظرة اللاهبة ، حتى زعزعه. قال الرائد وهو ينهض :

سادعكما معا حتى تشبعا

وخيم سكون ثقيل .. وهب يفكر في رفيقه الذي اقترح في احدى الاجتماعات ان تجري للرفيق غنيم محاكمة غيابية ، ويكلف رفاقنا السجناء بتنفيذ الحكم . (غنيم خطر على المنظمة غدا .. يخرّب معنويات الرفاق .. فشا أسرار المنظمة كاملة .. غنيم يجب ان يموت داخل السور الذي اقاموه حوله .. في عقر الجنة التي ارادوها له او ارادها لنفسه .. غنيم انشوطة في يد الجستابو ..) قال وهب لو ان المحاكمة تمت ايها الرفيق لتوليت تنفيذ الحكم الآن .. وغنيم لم يجرؤ ان يفتح فاه . تكوم الجبن من كل انحاء عمره وانصب فوقه بعد تلك النظرة .. امتدت الدقائق بهما قبل ان يبدأ وهب :

ــ نعم .. ماذا تريد ان تقول ..؟

كنّ غنيم امتنانا للرفيق الشاب ، على الرغم من اللهجة غير الودية التي نطق بها .. لقد هوّن عليه أن يبدأ .. اشعل سيجارة مثل سيجارة الرائد ، وبلع الصفارة ثم قال :

ــ يا اخي العزيز .. يا رفيق .. الدرب مسدودة .. ليس من مخرج الا الى الموت .. وما الثمن . النصر ..؟ أين هو ..؟

التغيير ؟ دلني عليه وخذ روحي .. دع عنك ذلك يا وهب..
أنت في زهرة شبابك الآن .. انظر الي (ومد كفه الى ذقنه) لقد اضعت عمري وفتوتي فماذا جنيت .. وماذا جنيتم انتم .. وماذا جنت الناس والبلاد ؟ الدرب مسدودة يا وهب .. وهؤلاء وحوش حقا .. وكلما سرت أكثر طلعوا عليك بشراسة اكبر ..

امتلك وهب شجاعة لم يعاينها من قبل .. وفضل ان يوفر على غنيم جهده ، فقاطعه بحماس وانفعال ، ممثلا :

ـ اعقل يا بني .. احك لهم كل شيء .. انسحب من المنظمة .. واربط نفسك بهم أيضا .. توج تاريخك بالعار .. علامة الوفاء لقضيتك ومنظمتك النكوص .. كما فعلت يا بني (ودار بجمعه الى غنيم) لقد هونت عليك .. اليس كذلك ..؟

هل تريد ان تقول اشياء اخرى ..؟ خير الكلام ما قل ودل ها أنت تتعرى جيداً فهل عرفت نفسك ايها الساقط ؟

وفيما اخذ وهب يتدفق ، كان غنيم يحتقن ويعاين الحصار، والوخز ، فيفر من كلمة الى كلمة ، ومن شوكة الى شوكة ، حتى هب وقد اعجزه الاحتمال ، كما عجز ذات يوم .. واكب من على نار وهب ، وتفرس ، وقد عي ، ثم اندفع خارجا ..

ومن الباب انسربت كلماته الملوعة :

ـ انه يعجز الشيطان .. لا حيلة لي فيه .. تدبروا امره انتم ..

- ٦ -

رافض النعمة انت .. ناكر الجميل ـ قال له الرائد، واضاف اني بريء منك .. لقد اديت حق الجيرة ، ولكنك تصر على ان تركب راسك .. حسنا .. هل تعرف ماذا يعني ذلك ؟

اعترف وهب في سره أن محيا الرائد ، وعينيه ، وحركة فمه ، جميعا ، تسبب هلعا حقيقيا .. وود لو ان هذا الغاضب يترك له فرصة اخرى .. لكنه كان قد تيقن منذ زمن بعيد من بطلان التمني ، ولذلك خرس ، بيد ان الرائد عبد المنعم كان مصمما على ان يتحرك اللسان الملجوم ، فمد يديه الى فم وهب ، وفتحه بجهد يسير ، وحاول ان يقبض على تلك القطعة التي تغيظه بصمتها وفكر وهب في ان يعض على الاصابع الدخيلة ، ويطردها ، وانساق مع فكرته قليلا ، قبل ان تفرغ راسه منها صفعة معمية وحسب بعد لحظة ان اركان حنجرته . ـ وخاصة حلقه ـ تتزعزع ، فتفرس في وجه الرائد ، وانقضت ثوان من التحدي ، وهم ان يقذف بقبضتيه المقيدتين في الوجه الوحشي ، ثم هم ان يضرب بكامل جسمه ، وكأن الرائد قرأ ما في دخيلة وهب ، فرجع الى مكتبه وضغط على احد الازرار ، فدخل قبل ان يرفع أصبعه رجلان ، وفهم الجميع ، فهموا دون ان ينبس أحد . انتقل الرجلان باشارة من الاستعداد قرب الباب الى الفريسة .. حرمهما وهب من لذة الجر . لم يسعدا لانقياده .. الى الصالون .. مرة واحدة رسمت الدرب في الذاكرة جيدا .. لا ركلات في الممر ، ولا جدار يرميه الى جدار . شكر لهما هذا التأدب الزائد .. في الصالون كان الرجل الثالث يعلق اداة يجهلها في احد المسامير التي تكسو الجدران .. الدولاب في الزاوية .. رآه وكشر له .. لن ترهبني هذه المرة أيها العزيز .. لم تجف الماء بعد ، لا عن ثيابه ، ولا عن البلاط القذر . امتدت احدى القبضات الى كنزته الوحيدة فعرته منها بطريقة لم يعاينها من قبل .. ثم امتدت قبضة أخرى الى قميصه الداخلي والخارجي معا فنزعتهما بقوة بهرته ، وضغطت بعض أضلاعه ..

ـ اخلع حذاءك ..

وقذف به الى الارض .. اراد ان يطيل فترة خلع الحذاء ،

لانهم سكنوا اثناءها . سمع وهو ينفذ الامر اقداما تقترب ، فحزر ان الرائد قادم . كان النقيب قادما ايضا .. تباطات الخطوات بين المدخل وجسم وهب العاري . انهضه الرائد من جمته . الرائد هو الآخر شجاع وقوي ــ قال وهب وهو يتألم لرأسه ، ويخشى ان تتشقق الجلدة اذا آستمر تدخلهم فيها ــ تفتق ذهن النقيب عن فكرة بارعة .. انتزع سيجارته المفلترة المتوهجة من بين شفتيه بعصبية ، وراح يضغط على زند وهب . اجفل وهب ، الا ان القبضات الحديدية ضمنت ثباته . عض شفتيه ولم يتذوق طعم الدم الذي تفجر منهما الما ، وشمخ برأسه ، وانتفض .. سمع بقلبه كما سمع باذنيه نشيش اللحم المحروق .. قال الرائد :

ــ قرفص يا كلب .

تخلت عنه القبضات ، وقرفص . وعلى ظهره أخذ الضابطان يتباريان في اطفاء السجاير ..ماذا يجدي ان يتململ او يتزحزح؟. فوق كتفيه يضغط جبل احد العناصر ، وفي منافذ الهواء المتبقية يكمن الآخران . لم يصرخ . كانت اسنانه وجفناه ملجأ وحيدا .. حتى الرأس منعوه من ان يفرج بتحريكها .. وتطاول عليه الزمن قبل ان يسمع :

ــ ستستمر في السكوت ..

كان الرائد يسأل ساخرا . قال النقيب وهو يضحك :

ــ هل حسبت نفسك ادوار حقا ؟ هل تتوهم انك رئيس المنظمة حتى تقاوم ..

استطاع ان يتأكد ، على الرغم من الالم المحبوس في كل عروقه ، ان النقيب لم يعد يريده أن يبدل شخصيته ، وبعد قليل ــ وكان الضابطان قد شبعا من لحمه ــ تأكد ايضا ان النقيب يتظاهر الآن انه كان يهزل عندما خاطبه « انت ادوار ، وانت المسؤول الاول .. »

كان الصالون قد اخذ يدور به .. حتى الرجال الاشداء الذين يقفون حوله اخذوا هم يدورون ايضا ، لكن ذلك لم يمنعه من ان يرى خشبة تقترب منه ، وترتمي عند قدميه . امعن جيدا فاذا بخشبة اخرى . لم يكتشف أن الخشبتين موثقتان الى بعض ، آلا بعد أن وضع ساقيه بينهما ، وانشدتا . لقد عصرتا اللحم والعظم فوق رسغيه عصرا ، ومع ذلك فقد أستكان لهما بعد قليل ، وتخيل ان الخيزرانات قادمة ، لكنه انتظر عدة دقائق ، توضح بعدها أن خياله قاصر . كان الضابطان يغادران الصالون ، وكان شريط اسود مزدوج وطويل يقترب منه . انه ليس وثاقا متينا فماذا يراد به ؟. وقطع عليه تساؤله أن حامل الشريط يجرب ان يلمس قدمه بحذر وخشية واضحة ، ثم اذا به يقفز في الهواء ويتزلزل كيانه. لقد تخطى سقف الصالون نفسها ، وانقذف الى الفضاء الاعلى ، ثم تأرجح بجنون حتى كاد ان يسقط الى الدرك الاسفل من النار .. وحسب أن لعنة ابدية قد حلت به ، ثم فتح عينيه ، فابصر الشريط مرميا قريبا منه ، وادرك من خلال الوهن القاتل الذي سمعه وسيطر عليه ، ان الكهرباء فظيعة ، ووحشية ، على الرغم من بصماتها الحضارية الرائعة خارج الاقبية والسجون .. وانتفض قلبه لاصبعي الرجل تمسكان بطرف الشريط من جديد ، وتقربانه من القدمين الموثوقتين ، حاول ان يهرب ، أو يتقلب على الاقل ، فاكتشف ان الماء قد زيدت تحته وان ذلك هو الذي ضمن ناقلية ممتازة للكهرباء ، ولكن ذلك لم يبعد به عن لمسة سحرية اخذته بعيدا هذه المرة عن الصالون والسقف والفضاء والنار والرجال الثلاثة والشريط ، وجعلته شيئا آخر،غير وهب ابن نجيب المختار.

- ٧ -

ادار ناظريه ، أول ما فتحهما ، حولـه ، فأبصر الجـدران عارية .. دقق جيدا ، فخيل اليه آنها قد ضاقت ايضا واغتبـط لان الزينة الحافلة التي كانت تغطي كل جدار قد اختفت .. كـان قد شد ظهره واستوى قليلا ، وعندما عاد الى استلقائه الاول ، وجد ان السقف قريبة منه على غير ما كان قبل قليل . حاول ان ينظر في الساعة فلم يفلح في تقريب يسراه من عينيه .. اكتأب ، وحرك يمينه ، فطاوعته بمرونة سرت عنه . واستند اليها ، وعزم على ان ينهض ثانية ، وبعد محاولة واحدة ، عدل عن نيته .. كانت ثيابه قد زادت ابتلالا .. حتى راسه ــ اكتشف فجـأة ــ مبتل تماما .. قدماه زادتا ثقـلا أيضا .. لا ريب .. نظر الى رسغيه اللذين اكتسبا لونـا خاصا ، ورغب في ان يتحسسهما ، الا ان وجع الظهر حال دون ذلك . تذكر السيجارات والضابط .. حمد لأليتيه انهما لا تشكوان .. لم يبـق في جسمه ناحية سليمـة سواهما .. بحث عن الساعة مرة أخرى فلم يجدها .. وصعدت اصـابع يمينه ــ دون ان يتدخل ــ تتلمس ساعـده ، فعضده ، وتوقفت عند اللطعة الاولى .. حرف رقبته اليها فانعصر القلب .. كانت حفرة حقيقية في لحمه تنز .. بحث حوله عما يلتقط بـه ماءها فلم يجد شيئا .. استطردت عيناه في كشف المكـان ، فوقعتا في الزاوية المجاورة ، على حذائه ، واستطاع ان يصـل اليه بعد أن قرر المغامرة بيديه وخاصرتيه . في الحذاء كانـت الساعة حزن لانها مشوهة واراد أن يعتذر لاخيه مسعد عن ذلك .. داعب صدغيه ثم فرك جفنيه ، وعاد يتملى السقف والجـدران حتى وصل الى الباب ، فذهبت شكوكه ، وجزم ــ تماما ــ في انه نقل اثناء غيبوبته الى هذه الغرفـة .. كانـت ساعته تشير الى

الواحدة .. تساءل عما اذا كان الوقت ليلا ام نهاراً ..؟ فلا شك انهما يستويان هنا .. ليس ثمة ثقب واحد في هذا المكان ، والضوء الذي يشع من لعبة شحيحة يضيف ظلالا حزينة ألى النفس ويشحب الغرفة .

هل الباب مفتوح ؟ هل ثمة من يحرس ؟ اين هو الصالون اذن ؟ وأين هي تلك الوحوش ..؟ واحس أن مثانته تتضخم .. وانقبض لانه استشعر ضغطا في جوانبها .. حسب للحظة انه يريد ان يتبول ، لكن الضغط أخذ يصعد ويستولي على انحاء مختلفة في امعائه وفي معدته ، ثم رآه يتراجع الى قفاه ، فتأكد من انه يريد ان يتغوط .. لكن الالم زال كله فجأة .. وتملكه ارتياح كبير أغمض له جفنيه ، الا انه فكر اثناء ذلك ، مرة أخرى ، بدورة المياه ، ثم فكر مليا بالطعام ، فسرى ألتحرك الموجع عينه رويدا رويدا .. لعن التفكير وصد حاجاته الغريزية بقسوة .. (ليس في هذه الغرفة شيئا مما تريدين ..) بيد أن الالحاح كان شديدا هذه المرة .. صبر وقتا اخر ، في محاولة للمماطلة ، ورأى ان يسري بالمشي .. ازدأد حزنه لانه خشي ان يتفاقم عجزه .. ثم قرر أن يزحف الى الباب دون ان يدري لماذا ؟ حتى اذا وصل تردد في أن يطرق .. انهم الان غافلون عنك .. من يدري انهم سيعودون بك الى هناك ان أعلنت عن آستيقاظك ..؟ وأذا كانت الواحدة ليلا ، وكانوا نائمين ، فكيف سينقمون من ازعاجك ..؟ ثم من يدري على كل حال أنهم سيفتحون ..؟ وفوجىء وهو في غمرة اقدامه واحجامه بمفتاح يتحرك في قفل الباب ، فتضاعف قلقه ، وتاه بين الفرح والخوف ، وعندما انفتح الباب ابصر في فرجته وجها جديداً ..

ــ ماذا تريد ؟

سأل الوجه بحيادية خففت عن وهب . اجاب مغضيا

ـ دورة المياه

وتلعثم وهو ينطق .. وكان على وشك ان يتكلم ثانية ليتأكد من سلامة لسانه ، حين جاء صوت الحارس :

ـ انهض .

اطرق وهب وتردد ، ثم تكلم حزينا والعجز يكبله :

لا أستطيع ..

فلبث الحارس برهة كانت نار وهب اثناءها تتفاقم أيذاء ، ثم قال :

ـ هات يدك ..

لم يصدق وهب .. وأراد ان يشكر الرجل ، الا ان الاستغراق في الانتقال الى دورة المياه انساه ذلك ..

وفي الداخل ، لم يستطع أن يتبين ايضا ان كان في ليل ام في نهار .. فقرر أن يستفسر من الحارس فور خروجه .. وقد فوجيء عندما فعل بالرجل يسأله :

ـ وماذا تريد من ذلك .. ما الفرق بين الليل والنهار هنا ؟

لم ينفر من السؤال على الرغم من الدواعي .. وتمنى ان تطول به الطريق الى الغرفة .. عند الباب استوحش ، وتلبث لحظة . ثم ادرك غباء التمنع والدلال ، فولج ، وهو يرفع عينيه الى الحارس في نظرة اخيرة ..

ـ ماذا تريد ايضا ..؟ اذا لم تقلقني سكت عنك .. كلهم نيام ما عدانا نحن الاثنين ..

ابتأس وهب لكلام الحارس .. كان يود الا تتغير لهجته الاولى ، وتردد فيما يطلب ثم وجد لسانه يتحرك على هذا النحو :

ـ شكرا لك .. لن أزعجك ..

وانصفق الباب ..

- ٨ -

الصقيع لص بارع .. لو لم يكن كذلك فمن اين كان له ان يتسلل الى هذه الفرقة القبرية ..؟ بل من اين كان له ان ينفذ الى نخاع العظـام ؟

في البداية ارتجف .. اخذتـه القشعريرة .. ونفـر من البقعة التي تحتلها قعدته برهة ، ثم عاد اليها ، ملهوفا . لقد تيقن انها احنى أنحاء الغرفة عليه .. أن قدميه لا زالتا ترفضان التعاون معه . جالت عيناه ايضا ـ أول ما ضبط الصقيع ـ تبحثان عن دثـار فخابتا .. تواضع وحلم بأية قطعة قماش ، فما نفع الحلم ولا التواضع .. لم يكره صيف مدينته الصحراوي من قبل .. كانت برودتها الليلية تنعشه .. حتى في الشهور الخمسة الفائتة ظل يحب ليلها وبرودتها .. (كثيراً ما كان يبيت في العراء ..) هل نبذته هي الاخرى ..؟ هل خانته مثلما خان الرفيق عابد ..؟ القر والجوع والالم يتضافرون عليه جميعا في هذه الليلة المديدة .. وحده هذا الضوء المسلول ظل حياديا .. لقد عاهدت الحارس على الا اقلقه .. لا بد ان يصدق العهد .. هل ينام الحارس في مثل هذا العراء ايضا ..؟ هل يكون الحارس سجينا هو الاخر ..؟ الامعاء اللعينة والبطن الخاوية تلج .. منذ خمس عشرة ساعة لم ابلـع لقمة واحدة .. كان ينوي ـ بعد لقاء عـابد ـ أن يتناول عشاء معقولا مع الرفيقة سربوهي في المخبأ السري .. لقد وعدته بشرائح وبطاطا مقلية وبعدد وافـر من الارغفة .. كان الجـوع في المخبأ اقل ايذاء على كل حال منه هنا .. كان يرجح في سره ان يطلب الى الرفيقة سربوهي أن تنقل تقريره النهائي عن عابد آه .. لو انهم استجابوا اليه منذ نقل انطباعاته الاولى .. فـي مسيرة المنظمة يلزم ان تكون العلمية أولا وآخراً .. ولكـن حدسي

الباطني لم يخطىء مع ذلك .. أتكون البصيرة تمرست بالعلمية .. على الرغم من السنوات القليلة التي قضاها في النضال (العلني والسري) فقد اكتسب بصيرة نافذة .. قلت لهم أثـر اللقاء الاول مع عابـد :

ــ هذا الرجل لا يصلح لهذا الزمان .

وقدمت تعليلات لم تكن كافية ، كما رأى الرفيق المسؤول .. (اكتشف أن ذهنه يفر من امعائه وحروقه ومن الصقيع .. وانه يفيد من ذلك .. فأراد أن يستغرق فيه ..) قلت لهم « صاحب سيارة » .. فقالوا سنحتاج اليها .. ويوم احضر معه من بيروت في احدى سفراته رزمة من المناشير تراجعت احتجاجاتي .. لكن اللقاءات التالية اسعفت في كشف عابد ..

جرب مرة ان يتأخر في الحضور .. كان زمـان الموعــد العاشرة ليلا في ساحة المنصور حيث يتيسر الاخفاء .. لطى في احدى الزوايا المعتمة يرقب عابد .. كان يريد أن يختبر .. وصل عابد فما انتظر دقيقة واحدة .. خالف التعليمات .. كان عليه ان يلبث خمس دقائق ، يتظاهر خلالها بأصلاح خطأ في السيارة .. حاول وهب ان يناديه لكن السيارة كانت قد طارت .. قال لهم « عابد ليس انضباطيا .. » فقالوا : انت ستربي فيه الانضباط .. وماذا يذكر ايضا من عابد ؟ الفخ ؟ الفخ هذا المسـاء ؟ كان علي الا اقع .. اجل سيتشددون في محاسبتي على هذا الخـطأ .. عابد هو السبب .. هل هذا كاف ..؟ عابد الذي كنت أقول لهم عنه . عابد الذي كنت انوي ان اختم السيرة معه هذا المساء .. لقد خط فكرته عن ذلك في ورقة كان سيسلمها الى سربوهي عقب عودته .. لعل سربوهي ان تقع عليها فوق أحد الرفوف .. او في احدى الزوايا .. سيقدرون موقفه ان حصل .. قال له عابد مرة :

ــ يا رفيق وهب .. يبدو أن احدهم قد اشتبه بي .. اشعر

اني مراقب في بعض الاحيان .. واخشى ان تعظم شكوكهم ..
فقال وهب لرفاقه : اما ان يكون عابد جبانا ، أو دعيا ..
ويومئذ غضب الرفيق المسؤول وقال : لماذا المنظمة ان كان العضو سيشرف اليها جاهزا مجهزاً .. ومن اي سماء سيهبط علينا هذا الملاك ..؟ بيننا يتخلى الرفيق القادم عن جبنه وانت ستشذب زوائد عابد ..
فأقر بغفلته .. وأوثق نفسه بعهد سري على ان يلغي كل تحفظاته وتساؤلاته حول عابد .. بيد ان ذلك العهد لم يعمر طويلا .. قال وهب : إنا اعايش هذا الانسان .. خبرته اكثر منهم .. صحيح أن خسارة أي صديق في هذه الايام كارثة ، فكيف بمن يوشك ان يغدو عضوا ..؟ ولكن ..؟ نبقت الشكوك ثانية .. أطل راسها ..
قال عابد وهو يعيد احد المناشير ، بعد ان قراه على ضوء السيارة الداخلي :
ـ افضل الا احتفظ به .. اقرأ هنا واعيد لك هنا .. هذه الايام لها رائحة خاصة .. يجب الا يضبطوا لديّ آي مستند ..
هل هو جبان الى هذا الحد ؟ يوم غامر ونقل الرزمة من بيروت انتفى عنه الجبن .. ولم يسمح لاية اشارة ان ترتسم .. (كانت احدى الاشارات تتهم عابد بالتعامل مع المخابرات التابعة للسلطة .. ما دامت الشجاعة المعهودة فيه غير جديرة بمثل هذه المهمة الملغومة ..) لعن نفسه اولا عندما رأى عابد يرفض الاحتفاظ بالمنشور .. ما أروع ان يقول له : (اخيرا ، لا اريد ان اعمل) . كنت اطالب بطرده ، فاذا به يقول لي وللمنظمة : استودعكم الشيطان .. لقد اجهد وهب فكره في التحليل يومذاك ، وقال ان عابد أن لم يكن جبانا فهو عميل ذكي .. انه يريد أن يسد منافذ كل الشكوك .. لن يحتفظ بالمناشير .. يقرأها هنا ويسلمها

هنا .. لكن وهب لم يجرؤ على آن ينقل ما اعتمل في داخله الى المنظمة .. لا مناص من أن يجد الرفيق المسؤول تعليلا .. لقد كان في الصمت الخطأ ..

كان الزمن يعرج به بطيئا .. اين هي تلك النجوم المسمرة .. الساعة تؤكد ان الليل لم ينته بعد .. او أنه لم يبدأ بعد .. اللحم والدم قررا الا يسكتا على سلوى عابد .. او غير عابد لن يتسلل شعاع واحد الى هذه الغرفة مهما تضوأت الصباحات في الخارج .. عهد الحارس لم يزل حيا .. من آجبن انت أم عابد ؟.. الوفاء لراحة الحارس يصونه خوفك .. ولكن يوما في السجن يمضي .. النوم لا يأتي .. والنور لا يأتي .. وكل اشياء الدنيا الاخرى غائبة .. فأين انت يا ساعة اللقيا ...

- ٩ -

ما ان فتح الباب في الساعة الحادية عشرة ــ للمرة الثانية هذا الصباح ــ حتى استبشر .. قال الحارس : ان النشاط يتوقف في القبو نهارا ... ثم أحضر له طعاما بالنزر الذي نقده اياه .. كان يجزم انه سيلتهم جبلا .. لكن الاشتهاء العارم ضاع سريعا ، مع ان الجوع ظل حيا .. استطاع ان يغفو عقب الافطار المهرب فترة غير قصيرة .. كانت ثيابه قد جفت ، وكذلك شعر راسه . في فرجة الباب وقف هذه المرة وجه جديد . لم يوح اليه بمشاعر عدائية .. حزن للحارس الاول .. ولكنه ، رغم ذلك استبشر .. لم تطل وقفة الوجه الجديد . يبدو انه كان يخفي بعض الادوات .. ولج ، وأوصد ، ثم راح يمد سلكا رمادي اللون، مزدوج الضلع .. غاص البشر من محيا وهب ، ولكنه ظل يبعد احتمال عدائية هذا الانسان الذي احضر سلما حديديا صغيرا

وأبدل اللمبة الشحيحة ، فسودت العتمة كل شيء .. لم ينبس وهب .. أستبد به القلق والترقب .. ماذا يصنع هذا الرجل ..؟ لقد استمر تحت العتمة ينجز أعمالا اخرى .. طال الانتظار الصامت .. ولكن الخشية كانت تتراجع رويدا رويداً عن السجين المنهك .. انتهى الرجل من أعماله ، واخرج بقاياه، واوصد جيدا . لا ضوء ماذا فعل هذا المجنون ..؟ ثار وهب .. هل سيتركني في العتمة .. أيكون جهاده كل هذه الدقائق من اجل اعطاب تلك اللمبة . لقد آنست ليلي ووحشتي ووحدتي . أشتاق الى شحها .. وبغتة فجأت عينيه لمعة حادة حسبها نصلا .. امضى من اي نصل كانت .. لقد اخترقت راسه .. فرك عينيه فركا مبرحا ، وحاول ان يفتحهما فعجز .. انتظر ان يتفجر دمهما .. حاول ان يسترق النظر فأفلح بصعوبة وتكلف أذى وصبرا .. لقد استبدل الشيطان الشمس نفسها بذلك الضوء الخافت .. ايقن تماما أن اللمبة الجديدة تتفجر حمما ... وقد تحسس الحرارة الحارقة في جبهته وصدغيه وشعره . ثم في عروقه .. أيكون قد علق اكثر من لمبة ؟ اعترف بغبائه آذ استبشر لذلك الوجه .. ولم يطل الامر به حتى باغته نصل آخر اخترق أذنيه من اقصاهما الى اقصاهما .. حاول ان يحمي سمعه بسبابتيه لكن ذلك لم يجد .. امتلأ غيظا ، وصرخ ، لكن الصوت الذي ملأ الغرفة ــ كما النور ــ لم يفسح لصراخه .. اكتشف ان النور كان اكثر رحمة .. لقد تجاسرت عيناه على زاوية منه ، اما هذا الصوت فهو رهيب حقا .. لن يجرؤ على ان يفتح اذنيه لحظة .. مؤكد انه سيمنى بالطرش ان فعل .. من قال لكم انني احب الغناء والموسيقى يا سادة ..؟ من قال لكم انني استوحشت في قبري هذا ..؟

خرس كل شيء فجأة .. الضوء والصوت معا غارا .. ارخى

سبابتيه وساعديه ، وفتح عينيه واذنيه .. ما أروع العتمة وما أعذب الصمت .. تنفس بارتياح .. وعندما اتم زفيره كان ألبهر والضجيج قد كرّا عليه ثانية ، وببغتة مهلكة .. أن المسألة ليست لطفا اذن !!. والنهار موسم عمل عند هؤلاء كما الليل .. هل يكون الرائد هنا ؟ هل النقيب هاشم ؟ هل الوحوش الثلاثة التي افترست لحمي امس ؟ هل هي مقدمة نهارية لليل موعد ..؟

في المرة الثالثة استوى في صدره الحنق والوهن ...

وفي المرة الرابعة ، دحر الوهن الحنق ، واكب وهب على وجهه ، وكاد ان يبكي ..

* *

تململ قليلا ، ثم انقلب على قفاه ، وهو لا يزال مطبق الجفنين ، اما سبابتاه فقد تخلتا على ما يبدو منذ زمن عن اذنيه . جرّب ان يفتح عينيه فلم يقع الا على الظلام .. ركبته خشية مفاجاة .. ايكون قد عمي ؟ حدق في الظلمة ، ثم انصت، وانصت ، ولم يسمع ما يدل على حياة .. تضاعف هلعه .. ايكون قد اصابه الطرش ايضا ..؟ يا للنعم المغدقة ... تكلم .. قال شيئا .. تربع جالسا .. لمعت في خاطره الساعة .. الساعة .. اختطفها الى عينيه فابصر اشارات الفوسفور الباهتة .. الصقها باذنه فسمع الدقات لثمها عشر مرات .. ومد قدميه مغتبطا .. لكن ايعقل ان يكون قد اغفى على ذلك الصوت الجهنمي والضوء القاتل ؟ ضحك .. كم هو مترف .. كم هو بورجوازي .. لقد استطاع ان يغفو على تلك الالحان الهادئة والانوار الشاعرية .. ود صادقا لو انهم لا يعودون الى ذلك اللطف .. وتحسس انحاء جسمه السفلية .. الوجع رابض في كل مكان .. اطرق ممعنا

وقال « حاولوا ان يتسللوا الى اعصابي .. المجرمون . يريدون ان يقتلوني من الداخل .. ليس بسبـبـبه الضرب او النـــوم او الجوع .. مؤكد أنه لم يعاين مثل هذا التعب العصبي عمره .. هذا المكان حافل بالجديد . قاده امعانه الى الليلة الاولى في رحلة الشهور الخمسة الفائتة .. قالـت له نـور حينئذ : جسمـك معافى .. لكنك منهك من الداخل .. ومن يبدأ الرحلة لا يلـزم ان يكون كذلك .. لقد آذته تلك العبارة .. وجعلته يتعجل الرحلة والمخابيء والخطر .. ولولا انه كان اللقاء الاخير لما غفر لها .. آه لو تبصرين يا حبيبتي .. منهار انا من الداخل والخارج الآن .. الحروق تنخر والاعصاب تنز فماذا تقولين بالله ..؟ واستبد بـه الحزن كما في كل مرة حضرت اليه نور ، بعد ذلك اللقاء .. كانت (المخابرات) توشك ان تنهي امره .. المنظمة قالت ذلك ، وهو قد تثبت منه .. وكان عليه ان يختار .. هل يكف يده حتى يكفـوا مراقبتهم او ملاحقتهم ..؟ ولئن فعل فستبقى له نور والمدينـة والدنيا الاخرى .. هل يرحل الى المخابيء السريـة ويضاعـف خطواته على درب العذاب الواعد الذي ارتضى ..؟ حتى المنظمة تركت له الاختيار ، الاختيار انهكني من الداخل يا نور .. لم يكن يحسب ان الزمـن سيطول بينه وبينها مثلما كـان .. خمسة شهور .. لا سربوهي ولا مسعد استطاعا أن يرتبا لقاء .. كـاد يطلب مرة في الاجتماع الرسمي للفرقة ان يدبروا له أمر لقـاء .. في الايام الاولى كان يهنأ لذكراها كلما اخلد لراحة أو نوم .. الأيام توالدت وتراكبت ونور قصيّة .. وذكرى الهناءة صارت تمتزج بالحزن .. ثم استبد بها الحزن .. ماذا يكون قد حل في نور .. قدم الصيف منذ زمن واغلقت المدارس فأين تكون الآن ؟ هل عادت الى القرية ..؟ هل تذهب الى ام صفوان وعش اللقاءات الاولى ؟ هل تذهب الى العزيز فارس ؟ مسعد ادرك يوم كانا لا يزالان معا

شوقه وقلقه .. وحاول ان يخفف عنه بكل وسيلة ، حتى أيس ، فانتفض في وجهه :

ــ هذا كله خطر على أهليتك للنضال .. أن فيه جورا على المنظمة .. هل تحسب ان نور تريد منـك ذلك كله ..!

كم انت رائع يا مسعد .. لقد سألني عنك امس الساقط غنيم .. وسألني عبد المنعم .. عبد المنعم صار وحشا يا مسعد.. هل رأيت نور بعد ان افترقنا يا أخي ..؟ كنت تقول لي دائمـا سنلتقي جميعا هناك .. في قمة جبل المرام ستكون اللقيا ، حتى الذين يقضون على الـدروب الصاعدة قلت سننقلهم معنـا الى القمة .. لكن لو جاءت نور الى المخبأ مثل سربوهي الا يكون لقـاء قبل القمة .. لو تأتي الي هنا في هذا القبـر الا يكون لقـاء يـا مسعد ؟ الم ترو لي عن الاحبـاب الذيـن عاشوا في السجـون والاقبية والمخابيء .. في مدينتنا وفي كل المدن يا مسعـد ؟؟. كشر وهو يصل الى هذا .. لقد كان يؤمل في المخبأ على كل حال ان يلتقيا .. حتى بعد ان ذهب مسعد ، وضاق الخناق ، وصارت سربوهي تغيب أكثـر .. أما هنا فهل سيؤمل بعد ؟ ومتى يكون الوعد ؟ واين يكون ؟ صدره ينضغط .. والكآبة تداهم .. ثمـة القمة .. القمة والسجن ، والمدينة ، ونور ، ومسعد ، واللـقاء، والانهاك .. اعصابه المنهكة .. وجسمه المهدود .. ألقتـل من الداخل والخارج معا .. لكـن ذلـك من اليأس .. واليأس داء السجين الوحيد .. كانوا يقولون .. الرفاق السابقون الى هذه الاماكن جربوا وعرفوا .. أمس لم يصرخ .. ولم يفكر الا في ان يفرغ الجلادون من اعمالهم في جسده .. كان يجهد في ان يحيّد لحمه ودمه ، واليوم ، لن يفكر آلا في ان يفـرغ أولاء من اعمالهم في اعصابه وفي داخليته .. سيجهد في تحييد احساساته .. سيقاطعهم بكل كيانه .. وسيتحداهـم .. وهـكذا سيناضل

ضدهم هنا مثلما كان يفعل هناك .. وصمم على ذلك .. فأجتاحه تيار الحياة دفاقا .. عندئذ ، لم يعد في الغرفة ادنى ما يحزن او يثير .. وأسعفه في ذلك انه كان قد تيقن ـ بسبب استمرار الصمت ـ أن أولاء قد عدلوا عن لعبة الصوت والضوء ، وان يكن عدولا مؤقتا ..

- ١٠ -

اقتاده الحارس الى غرفة التحقيق .. قلب عينيه في القبو وهو في طريقه الى الرائد عبد المنعم .. حاول أن يتعرف الى المكان ، في الخطوة الاولى لم يسعفه البصر .. كانت العتمة في الداخل قد اطبقت عليه ساعات .. بعد ان ملك زمامه رأى الصالون الى يمينه مباشرة .. وامامه امتد الممر الذي قادوه امس فيه مرتين .. بحث عن غرفة النقيب هاشم فلم يعثر عليها ، وكان قد وصل الى نهاية الممر ..

دخل غرفة الرائد متأدبا ، وحيا ، فهش له عبد المنعم وصافحه وامره بالجلوس .. ثم تظاهر بتوضيب بعض الاوراق المنتشرة امامه ، وعرض عليه سيجارة وطلب له كأسا من الشاي .. لم يكن قد ذاق طعاما منذ الصباح .. قبل أن ينهي كأسه قال الرائد :

ـ لعلك تكون قد كابدت ليلة امس او نهار اليوم .. انني اعترف ان هذا يؤسفني .. لكن كيف كان يمكنني ان اتصرف وانت ترفض كل مساعدة .. بل وتستسلم للشيطان .. انك لم تهن عليّ يا وهب ؟..

صمت الرائد برهة ثم عرض كأسا ثانيا من الشاي . لم يرفض وهب ، وتابع الضابط :

ـــ لقد عرفت بلا ريب ما يجب أن تفعله .. وانا واثق من انك ادركت خطأ موقفــك ..

استمر الصمت . بدا كأنما الرائد ينتظر أن يتفوه وهب ،

ـــ ستقول لي الان من الذى كان معك في الفرقة .. ومــن المسؤول .. بالاحرى تحدث على هواك .. قل كل ما يخطر لــك وسأصغي الى اي حرف تنطق به ..

عرف وهب أن الصمت لن يستمر بعد .. وعز عليه أن ينتهي الهدوء القائم ، ويخيب تفاؤل الرائد ..

ـــ لقد قلت أمس انني لم أكن مرتبطا بأحد .. وها انا أؤكــد مرة ثانية .. صدقني انني كنت أعمل وحدي ..

لم يفلح الرائد في اخفاء مشاعره ، على الرغم من انه انحرف بوجهه بعيدا .. قال :

ـــ هل كنت تطبع المناشير وحدك وتوزعها وتعقد الاجتماعــات و و .... وأشر بيديه . قال وهب :

ـــ لم أطبع مناشــير ...

قاطعه الرائد :

ـــ ولم توزع ؟

(صمــت)

ـــ من أعطى عابد منشور (الصاعقة) ..؟

أنكر وهب ، فاستدار اليــه الرائد بجمعه ، وقال بلهجــة عدوانية تمامــا :

ـــ يا بليد هل تعرف أين هو مسعد الان ؟

اغتم ، واضطربت شفتاه ، ورف بصره حتى وقع على مكتب الرائد .. وأوشك أن يلتقي بتحديقة عبد المنعم المغيظة .. ولكنــه لم يتكلم .. أردف الرائد :

ـــ لقد اعتقلوه منذ شهــر ..

قال وهب في سره : لماذا لم تقل المنظمة ذلك ..؟ انت كذاب..
هل تحاول أن تتسلل أيضا الى حصني الداخلي ..؟ قال الرائد :
هذا لا يهمك .. هه .. (يبدو انه كان قد قال كلاما آخر لم يسمعه وهب) .. وسربوهي .. من هي هذه الفتاة ..؟ ماذا تعرفه عنها ..؟ لن تنكر هذه المرة ..
قال وهب : لا أعرفها البتة .
وجم الرائد قليلا ، وقد تحسس اهانة لا تحتمل يلحقها به هذا الوغد الذي يتشبه بالصخر .. اية أسطورة تحكم راسه المنخور ؟ كان قد كابد صبرا مرا وهو يغل غضبه ويلجم غيظه .. سأل وهبا وهو يهز راسه :
ـ لماذا تخرب حياتك على هذا النحو .. لماذا تخرب حياة أهلك ومدينتك ؟
آثر وهب ان يتلفظ بكلمة .. قال :
ـ أنت تعرف ..
قال عبد المنعم :
ـ هل تريد ان تسقط السلطة حقا ؟ أنت تناضل وحدك أليس كذلك ؟ أليس من حقي ان أحيلك الى مستشفى المجانين اذن ؟
قال وهب وقد رغب في الحديث :
ـ ليس اسقاط السلطة .. (وبعد تردد) .. ولست وحدي ..
ابتسم الرائد وقال :
ـ حسنا .. واحدة واحدة .. ليس آسقاط السلطة .. ماذا اذن ؟
قال وهب : ثمة فساد كبير في كل مكان من هذا البلد ..
قال الرائد ساخرا : وهل أنت من سيغير هذا الفساد ..؟ أنت المشرد الضائع العاطل الفقير المنحوس ..؟ دعنا من هذا .. لست

وحدك قلت .. هه ؟
ضحك وهب في سره ، وقـــال :
ــ كثيرون هم الذين يمقتون الفساد وكل الذين يؤذيهم يرغبون في أن ينهـــوه ..
سأل الرائد :
ــ والذين يريدون اسقاط السلطة .؟
قال وهب ، وقد أحس أن عليه الا يتمادى في الحديث اكثر :
ــ ايضـــا ..
ــ وما أدراك ؟
تلون صوت وهب على نحو خاص واتجه الى الرائد :
ــ كيف تريد أن يكون من لا يشبع ولا يتعلم ولا يأمن على ...
قاطعه الرائد محتداً وممتعضا :
ــ كفى كفى .. لن تلقي علي درسا .. هه ..؟ لماذا اللـــف والدوران ..؟ من معك سيسقط السلطة يا سيد وهب ..؟ هـــذا هو الســـؤال ..
أطرق وهب برهة ، ثم قرر أن يقذف بالكلمة النهائية :
ــ لقد قلت لك انني أعمل وحدي ..
صمت الرائد ، ثم أدار كرسيه ، وحك قذاله ، ثم ضغط زر جرس أحمر ، فدخل رجلان لم يرهما وهب من قبل . قال الرائد :
ــ هذا المعتوه يستحق أن توصلاه الى مستشفى المجانين...

ــ ١١ ــ

ــ منذ متى لم تضاجع يا ولد ؟
سأله احد الرجلين ، فأجاب عنه الرجل الاخر :
ــ سيقاومك الان .. دعنى الينه قليلا ..

لم يفقه من الحديث أكثر من أنه مقبل على وجبة جـــديدة .. بأمرهما دلف الى غرفة صغيرة ، متسخة ، فيها حنفية ماء ومجلى وسوط مرمي في وسطها .. قال له أحد الرجلين :

ـــ انزع ثيابك .. تعر كما جاءت بك العاهرة ..

تردد في أن ينفذ . غاب الرجل الاخر قليلا ، وعندما عاد ، رآه وهب يدحرج دولابا من الكاوتشوك ، ويجر بحذر شريطا .. لم يبق فوق جسده غير السروال الداخلي .. هل يريد أن يخلع هذا أيضا ..؟ مد الرجل يده الى السروال ونزعه بجرة واحدة ترنح لها وهب ثـم حاول أن يستر عورته وأصابه البله .. لماذا يفعل هذا المجنون ذلك كله ؟ سمع من يسأله :

ـــ أيها تختار .. آلدولاب أم هـــذا ـــ وقذف بالشريط أمـــام عينيه ـــ أم هذا ..؟

لم يفهم الاختيار الثالث .. عيناه كانتا مسمرتين بالبلاط القذر .. سمع من يقـــول :

ـــ دعه يجربها جميعا قبل أن يختار .

نوى أن يخبرهما أنه عرف الدولاب والشريط .. ولكنهما ادخلاه بهمة وسرعة في الدولاب ، وانصرف كـــل الى أمر .. السوط الذي فرخ والقدمان والظهر والصدر والوجه والالية العارية .. تساءل ان كانا مصابين بالسعار .. وأراد ان يتابع العناد فأعجزته النار والقهر .. وعندئذ صرخ .. صرخ وقذفهما بكل ما وصل الى لسانه.. فقهقها .. وأصاب السوط عينيه .. ونالت الخيزرانة شفته السفلى فتسرب الدم الى حلقه .. بصق في وجه أحديهما ، فانهالت زخـــات مسعورة فوق كل ناحية من جسمه .. وتفجر الدم من غير الشفة .. وطال الانتظار قبل أن يهدأ غيظهما أفعلته ، فعادا يركزان (فقط) على قدميه وظهره .. أما هو فكان قد رآهما يتكومان تحت قدميـــه ، فيدوس فوقهما ، ثم يطير الـــى العالم الذي تختفي فيه الاســـواط

والاشرطة والدواليب ..

قال حامل السوط وقد كف وتنهد :

ـ أحسبه قد مات يا رجل ..

ضحك زميله ، وكف أيضا ، ثم أومأ الى السلك الكهربائي والحنفية وقال :

ـ أيقظه ..

رفض وهب أن يستيقظ .. ارعشته الكهرباء وتقاذفته أنحاء الغرفة ولكنه ظل غائبا .. ركب الهم الرجلين فوجما .. ثم حملاه الى مقربة من الحنفية ، وصوبا ماءها فوقه بعنف واضطراب .. واستمر ذلك زمنا حسباه دهرا ، قبل أن يرتجف جفناه ، ويفيق . هللا له ، وشتماه ، ثم شرع أحدهما يخلع ثيابه ، فقال الاخر :

ـ لقد لان زيادة عن اللزوم .. ما رايك في ان تؤجله الى مناسبة اخرى ..؟

فسمع وهب قسما عظيما وحارا ، وتصميما حديديا على المتابعة ... لم يستيقظ تماما الا عندما ابصر الرجل العاري يقترب منه ، ويمد يداه الى قفاه ..

ـ انت لوّاط ابن لوّاط .. حتى أمك كانت تلوط بك ..

أراد وهب صادقا أن يدفع الوحش لكن العجز غلبه .. لم يستطع أن يأتي حركة .. تألم وأحس انه يعامل كحيوان ... ورأى بينه وبين العالم ثقب ابرة فقط ، ولا مناص له من أن يلج .. ولج .. وتمزق ..

الفصل الثاني

-١-

استغرقه الجـديد .. تعمد أن يكون ذلـك .. راح يمارس سياسة التبليد التي اعتمدها في أيامه الاخيرة في القبو .. لقد حققت له تلك السياسة نجاحات باهرة .. جرد الايام والعذابات والسلطان من الهيبة والاشواك .. لم يعـد أي منها يخز .. لقد نأى القبـو الان .. أما هذا السجن ، فقد عرف منذ زمن بعيد انه يقوم في منتصف الطريق الى قمة الجبل .. كم عاين السجن في الماضي .. كان يقيس بناظريه المسافات من الاوكـار البشرية التي تتسلق الجبل الـى السجن ، ومنهما الى القمة التي عشق .. كان يخمن أن بشر تلك الاوكار يتسامرون في الليالي الحالمة مع صراخ رفاقه وأناتهم الهاربة فوق الاسوار .. غرف القبو كانت أفسح ، ومع ذلك ، فقد استوى لديه الاحساس بالحرية هناك معه هنا في النزل الجديد « سـالم

ابو ريحة » (١) حاول أن يلتهـم ، وهو يعبر ممـرات السجـن واقسامه كل ما تراءى لعينيه .. لكنهم لم يدعوه يفعل .. كانوا على عجلة من أمرهم .. لم يقض في مكتب رئيس السجن عشر دقائق .. كانت الزنزانة تنتظر .. ولقد اعترف لها فور ما ضمته انه حالم بها منذ عهد غير قريب .. واقسم على أن نور لم تنسه اياها وانه كان يسأل عنها الرائح والغادي .. وتمنى أن تطيب لهما العشرة أفضل مما كان له مع غرفته في القبـو ..

كانت عيناه قد وقعتا أول ما استقر داخل الزنزانة على الفتحة الصغيرة القابعة في الزاوية اليسرى شرقا .. لقد عطرت أنفاسـه منذ اللحظة الاولى .. فكر في أن يبتعد عنها ، لكنه فطن مباشرة الى أن الامتار قليلة هنا ، فقرر أن يتجاهلها .. دار حول نفسه ، ونظر الى الباب .. كان الشرطي قد أرخى المزلاج ، وذهب .. سمع وقع خطواته المبتعدة ، وانصت اليها ... الا ان الصوت لم يلبث ان تبدل، واخذ يقترب ، فزاد وهب من انتباهه ، حتى تأكد ان الشرطي عائد.. ومر الرجل فعلا أمام باب السالول .. لم يطرق ، ولم يمد مفتاحا ، ولم يطرف عينا .. لمح العمرة من فتحة الباب ، وهي نافذته الوحيدة، على العالم ، الا ان تعد فتحة المرحاض .. أخذ الشرطي يروح ويجيء،

---

(١) كانت زنزانات السجن الذي نزل فيه وهب ، بعد أن نقل من القبـو ، ذات اسماء ومواصفات عديدة . « سالول أو ريحة مثلا» اسم الزنزانة التي يكون على السجين أن يتبرز أو يتبول فيها ، وهي متصلة بالمجاري العامة بفتحة تكون في احدى زواياها وتظل مكشوفة .. « سالول القبر » اسم الزنزانة في الطابق الارضي من السجن ، حيث يحرم الدخول على الشمس أو الهواء ، والمرحاض في هذا النوع ليس في الداخل . ومما هو جدير بالاشارة ان السجنـاء هم الذين اطلقوا هـذه التسميـات ...

واخذت خطواته تبتعد وتقترب .. حسنا يا عزيزي .. سيكون هذا مسليا .. سوف أحلل وقع كل خطوة ... وسوف أعد وأحفظ ، ولن أسأم حذاءك العظيم .. وضحك .. امعن في الباب ، واتسعت ضحكته كـــل هذه الضخامة من أجلـــي .. العوارض الحديدية ، والاطباق الخشبية الغليظة ، والمزلاج الهائل .. وكل الممرات الضيقة والحراس والاسوار من أجلي .. رائع حقا .. لم اكن أعلم اني عظيم بهذا المقدار .. الاخرون الذين تعمر بهم كل الزنزانات في هذا السجن لهم أيضا مثل هذا .. فكر : كم هي عظيمة تلك المنظمة التي تبـــذل لها السلطة ذلك كله .. وسرح الى السجون الاخرى ، والاجهـــزة العديدة ، فتضاعف الاحساس بالعظمة ، ووقعت عيناه على كلمات مشوهة محفورة قرب الباب في اسمنت الجدار اقترب منها وحاول أن يفك الرسم فلم يفلح .. راح يبحث عندئذ عن رسوم أخرى ، فهاله أن رأى مدا من الاسماء والتواريخ المتراكبة أو الممتزجة .. صفق لكل الذين سبقوه .. حياهم ، وأكد لهم انه سيحفر اسمـــه أيضا قبل ان يبرح هذا المكان .. وداعب أحد جيوبه على الرغم من انه لم ينس بعد انهم فتشوه جيدا في مكتب رئيس السجن ، واخلوه أخلاء دقيقا من كل ما يلزم أو لا يلزم .. ثم قفز الى جدران القبو .. ان اسما واحدا لم يقرأ هناك .. ولا تاريخا .. لا في الصالون ولا في الممرات ولا في غرف التحقيق أو الحجز أو التعذيب .. وأسف لذلك .. القبو خطوة أولى .. تطلع في أظافره ووثق من انه سينقش هنـــا اسمـــه وتاريخه ..

* * *

.. من الحق أن يعترف أن ثقته أخذت تتضاعف في أيام القبـــو الاخيرة وقد هيأ له ذلك لذة افتقدها منذ زمن .. كان الاعياء قد هده .. وكان السقـــوط قد أخذ ينفذ الى مقلتيه وحبـــة قلبه .. قديماه

ضاعتا .. لم يفقد القدرة على السير فقط .. لقد غدا عاجزا عـن الحراك بتاتا .. جره الحارس ثلاث مرات الـى المرحاض .. منذ الليلة التي دنسوا فيها انسانيته ، ومارسوا حيوانيتهم في جسـده شرع يتراجع .. شفتاه ظلتا مطبقتين .. أجل ، لكن جسمه اخـذ يهون .. كان قد حسب أنه خرج من المحنة سالما قبل ذلك .. ألـم يجرب كل فنونهم ..؟ كان قد تصور أنه مدلهم حبلا كافيا من عناده لينشنقوا به .. وانه اكتسب مناعة حصينة .. وصار قادرا علـى أن يمضي بين أيديهم كل السنوات اللازمة لموتهم .. لكن جسمه أخذ يهون منذ ليلة أولجوه ثقب الابرة .. في الصباح الذي أعقب تلـك الليلة أبصر لطعات دموية عديدة على الارض تحته ، والى جواره.. خمن أنها من آثار أمسه .. وقـال له الحارس وقد رمقه بنظـرة خاصة : انك تنزف .. لم يشأ أن يهتم في البداية .. حتى بعـد أن اكتشف النزيف في باطن قدميه . كان الخيط الاحمر المنسل من الجلد المهترىء المتورم نحيلا ومتقطعا .. بعد الظهر قال له الحارس أيضا : انك تنزف .. وأحضر له بطانيتين عسكريتين ، وطلب منه كل النقود التي يحملها حتى تؤمن له الرئاسة طعاما منتظما .. شكرهم علـى رعايتهم الحنون .. وتيقن من انه سيقضي اياما طوالا في القبو .. لم يشفع له نزيفه .. ولا هزاله الذي كان قد أخذ يبصم عينيه وبشرته وأوصاله وصوته .. ألوجبة التالية ـ والاخيرة ـ شققت باطـن قدميه وقلعت الجلد .. صار اللحم المهروس بالدم يتناثر في كل مكان .. حتى فوق أرنبة انفه رأى نثرة تسقط .. ولم يسعفوه .. قضى ليلا آخر ينزف .. والخيط المنسل اكتسب قواما صحيحا ، ولزوجة خاصة بفضل اللحم الذي طبخ جيدا .. عندما رآه الحارس مرة أخرى لم يقل له شيئا .. غاب وترك الباب مشرعا ، ثم عاد بمسـؤول جديد .. ثم غاب الرجلان ، وظل الباب مشرعا أيضا حتى عادا برجل وأناء وحقيبة صغيرة .. عندئذ أدرك أن الامر صار خطيرا .. وانه

استحق الاسعاف أخيرا .. كان الهزال قد اطبق عليه .. وكان اليقين في تجاوز المحنة قد تزعزع .. شك في أنه استطاع أن يقهرهم، أو يتفوق عليهم ، أو يصنع لهم حبلا .. قال : ان كل ما ترىء أو سمع ليس كافيا .. فدائما تكون مع الممارسة تجليات جديدة .. وقرر أن يستسلم لمصيره ؛ ويرخي الشراع للعاصفة .. وقد طال به زمن التأرجح .. وظل المرض — أو الطبيب ؛ لم يدر — يرتق فتق قدميه ثلاثة أيام وينقعهما بالمحاليل .. سأله الحارس عن نقود أخرى فما وجد .. لم يصدقوه .. نقبوا ثناياه فعثروا على محفظة النقود الخاوية ، هدية نور في بيت أم صفوان .. أخذوها ، على الرغم من انه أراد أن يحتفظ بها بكل قواه .. قادته المحاكمة المنطقية الى الاعتقاد بأنه سيتخلون عن اطعامه ، ولذلك دهش اذ رآهم يجودون عليه بسخاء حقيقي .. ويبدو أن فرقة التعذيب قد نسته ، أو تناسته، مؤخرا ، فتقدم بطيئا نحو الشفاء .. وبعد أن ظل مقعدا سبعة أيام استطاع أن ينهض — بمفرده — وأن يسير الى المرحاض ، كما تمكن من أن يقطع عشرين خطوة داخل الغرفة وفي ذلك اليوم فكر في قرار الانقياد للعاصفة ، والاستسلام للمصير ، فهزأ منه ، ولام نفسه وضعفه .. ولم يشمخ براسه وبثقته الا بعد يوم آخر .. وما أن أبل تماما ونظر في موقع قدمه حتى ادرك انه دخل مرحلة جديدة .. لقد انتهى الاعياء والوهن والاختبار .. قص على كل الاسماء التي رآها منقوشة في جدار الزنزانة حكاية عذابه ، ووهنه ، وثقته المتنامية ، واعترته سعادة وطمأنينة لان قصصا كثيرة ، أروع مما حكى الف مرة، اخذت تسرد على مسمعه عن اقبية أخرى .. واناس آخرين من أفواه النقوش التي تتوهج في قلب الاسمنت ..

— ٢ —

عانق وهب صباحه الأول في سالول ابو ريحة مشرع القلب ،

ضاحك العينين .. أخذت الغبطة تتسلل الى صدره منذ أن افتــرق جفناه .. وعندما كان يتمطى ويتثاءب ، ويدعك جفنيه ، كانت هناءة حقيقية قد استولت على كيانه .. لم يكن الهدوء الذي ساد نفســـه معجزة .. لقد أراده ، وقصد اليه ، وفي القبو تعذب من أجله ، وقبل القبو افتقده خمسة شهور طوال .. انه الان أكثر استقرارا منه في أي يوم مضى من أيام رحلته الشـــاقة الطويلة .. كان قد خلع في احدى ساعات الليل الاولى قميصه الداخلي ، وكوره ، ثم سد به فتحة المرحاض .. ولقد ابتهج لصنيعه هذا بعد ان استراحت خياشيمــه من الرائحة التي كانت تجود بها الفتحة .. أما حذاؤه فقد كان خير وسادة .. تحت البطانية السفلى ـــ ناحية الرأس ـــ وضعه .. كان ثمة بطانية افترشها واخرى التحف بها .. لم يهن امام الصقيع كما في ليلة القبو الاولى .. في أول الليل أخذت تتردد في أنحاء السجن صيحة وحشية (جاهز) تتجاوب أصداؤها من شرطي الى شرطي ومن زنزانة الى زنزانة ومن صدغ الى صدغ .. ابتسم وهب للصيحة وتذكر نصل الصوت ونصل الضوء .. وحار في أن يقرر أي اللطفين أكبـــر ..

كانت ساعته تشير الى السادســـة . سمع لاول مرة بعد أن استيقظ ـــ أقدام الشرطي فرثى لهذه الاسطوانة . لقد قال لامــه ـــ وكانا معا هذه الليلـــة ـــ :

انه لا يحقد على هذا الشرطي .. كما لم يحقد على حراســـه هناك .. سألته عن الجلادين فلم يجبها .. كانت تبكي كعهده بها في كل الاحلام .. خمسة شهور وهي تبكي .. مسعد فر ، ووهب فر ، والجلادون يؤذون الاب المسكين .. لامها اليوم بخاصة ـــ وكان قد فعل في الماضي أيضا ـــ وتمنى ألا يراها في حلم جديد ، على اشتياقه، أن كانت ستبكي .. كان يعلم أن الوقت لا زال مبكرا .. وكان ينوي أن يتابع أحلامه واستمتاعه .. لكن أنظمة السجن الحديدية كانت

تفرض عليه أن ينهض .. خاطبه الشرطي وهو يطرق بقدمه الباب الغليـــظ :

ـــ استعد لتذهب الى المغسلة .. دورك بعد قليل ..

وقف وهب على رؤوس أصابعه وهو يتمطى ، واكتشف أن سقف الزنزانة جد خفيض ، فقد كاد ان يلامسه برأسه ، على الرغم من أنه ليس من المعدودين في الطول .. وقبل أن يجمع البطانيتـــين اعترض عينيه الكنار البني الذي يقارب سقف الزنزانة . مســـح بسبابته قليلا ، وتراجع أمام كرة سوداء من جثث البعوض تكـــونت على طرف اصبعه ، فقذف بهـــا عدة مرات حتى يتخلص منهـــا .. واستغرق في ضحكة عالية .. انه فخ البعوض اذن .. يدهنون من بقايا المربيات قرب السقف شريطا عريضـــا .. ، أو قل يحفرون خندقا واسعا يصد هجمات البعوض المتواصلة ، والشرســـة .. البعوض سمير الليالي في سواليل أبو ريحة .. ولولا الكنار البني لكان يحرم النوم على السجين .. كرر وهب اعجابه لمكتشف هـــذا السلاح العظيم .. لقد تفرج ، وهو مستلق ، أول ليله الماضي ، على جموع البعويض تطن وتروح وتجيء وتظل هناك .. في السقف .. لم تنزل اليه ، فتعجب .. وحمد في سره انها لم تفعل . انتزعه صوت الشرطي من تأملاته :

ـــ امش يا أفنـــدي ..

ألقى تحية الصباح على حارسه ، وأردفها في سره « من يدعي أنكم تهينوننا ؟.. »

ها انت تخاطبني بالافندية ..

ـــ من هنـــا ..

علمه الشرطي برأس ســـلاحه . كان عليه أن يستدير الـــى اليمين .. استاء لانه يسير تحت رحمة السلاح .. لم يكن موضـــع الاغتسال بعيدا عن الزنزانة .. ثمة صنبور واحد ، أصفر ومخدوش

.. تخرب نحاسه .. وهناك مبـولة ، ومرحاض ليس له باب .. انتحى الشرطي جانبا وادار ظهره ، وقال :

ـ تستطيع ان تقضي حاجتك .. هيا لا تبطىء ..

تحرك لسانه في صدره : في القرى يقضون حاجاتهم في العراء ايضا .. الا انهم لا يكونون تحت رحمة السلاح والمراقبة .. ولا قيد الانتظار .. حرنت أمعاؤه .. لم تشأ ان تتحرك على مرأى الرجل الغريب .. انصرف الى الاغتسال منزعجا ، وأراد أن يسأل الشرطي عن مواعيد الخروج التالية .. وقعت عيناه وهو على وشك أن ينتهي على عقب سيجارة طويل ، فتطلع اليه مليا ، وعد الايام التي لم يدخن فيها سيجارة واحدة .. حتى العقب لم يتح له ان يراه خلال تلك الايام .. تردد قبل ان يقرر اختطاف العقب وإخفاءه .. وعندما عاد الى الزنزانة وسمع قرقعة المزلاج ، وصوت قدم الحارس يبتعد ، هرع الى ريح التبغ .. داعبه وشمه ثم فتح الغلاف ، وأراد أن يعيد لفه .. وتأنى في ذلك طويلا .. ولم يفطن الى انه لا يملك عود ثقاب الا بعد أن انتهى .. وفيما هو يزدرد الحسرة والخيبة باغتـه صوت الشرطي :

ـ من اين حصلت على هذا ؟

التفت الى الكوة فزعا .. لم تكن ملامح الوجه السائل عدائية .. قال وهب وهو لا يزال متأثرا :

ـ من هنـاك ..

واشار الى مكان الاغتسال .. قال الشرطي :

ـ هذا ممنوع في السجـن ..

اطرق وهب ، وفكر في أن يمد يده الى الشرطي ما دام الامـر ممنوعا .. الا ان صوت الشرطي سبقه :

ـ خذ هذه ... دخنها بسرعة ثم اخف آثارها في فتحة الزاوية .. ان ضبطوا اي اثر لها ستجازى شر جزاء ..

عقدت الحيرة لسانه .. آلتدخين ممنوع في آلسالول .. أين هي سيجارة الرائد عبد آلمنعم آلفلترة والاجنبية ؟ آلشرطي يمد أصبعه من الكوة بسيجارة مشتعلة .. لا ليحرق زندي ..

واشتهاؤه للتبغ لم يكن يوما أكثر منه حرآرة الان ...

— ٣ —

رمى السجين عيني وهب بنظرة نافذة ارتدتا لها .. الباب وحده يفصل بينهما .. والاخر في الخارج .. عدا ذلك تستوي الاشياء . الشرطي في احدى النواحي التي لا تظهر لوهب من موقعه.

— ما اسمك ..؟

سأله السجين وهو يناوله اناء صغيرا ، مزج فيه قليل من الارز مع حساء البطاطا .. فلم يجبه ، آلسجين الذي جاءه بطعام آلصباح لم يسأله .. قال له فقط : لن يتأخر دورك في خدمتنا .. آلادارة هنا ذاتية .. واعقب جملته الوحيدة بابتسامة بائسة ..

— أسرع وقل .. لن أستطيع أن أطيل الوقوف ..

لفظ وهب اسمه وهو يزداد اندهاشا .. ولمعت في خاطره صورة الحبيبة الشرقية التي تلح على حبيبها أن يسرع ، فهي لا تستطيع أن تقف معه أكثر ..

— متى جئت ..

أجاب وهب : أمس .

— لماذا جاءوا بك ؟

سأل وهب : هل ستحقق معي ؟

قال السجين عجلا : الا تريد أن تتعرف على اخوانك ..؟ هل تفضل أن تعتزل في هذا القبو ..؟

قال وهب : ما اسمك آنت ؟

اجاب السجين : كنـــان .
سأل وهب : ولماذا جاءوا بك ؟
قال كنان : اتهموني بالتخريب .. وانت ؟
سرى عن وهب قليلا وقال : كذلك ..
باغتهما صوت الشرطي : هل تصلبت عندك يا طسم ..؟ .
قال السجين وهو يغادر متظاهرا بالتعجل :
ـــ سأعود بعد ربع ساعة لآخذ الاوعية .. حضر كلامك حتى لا يضيع الوقـــت ..

وضع وهب الاناء على الارض ، وتربع ازاءه فوق البطانيـــة المرتبة .. فكر في السجين كنان .. تساءل ماذا يكون اسم السجين الذي جاءه هذا الصباح ..؟ وهل سيتجرأ هو على أن يحادث الاخرين غدا عندما يحين دوره في الخدمة ..؟ ثم تبسم لذكرى الادارة الذاتية، وخف اضطرابه ، فاقبل بشهية على الحساء البارد والارز الذى يعج بالحصى .. وتلذذ بنتاتيف اللحم التي تتعثر بها ملعقته في أنحـــاء الاناء .. وما كاد أن ينتهي ويمسح فمه بباطن بقايا رغيف الخبـــز ، حتى سمع صوت كنان :
ـــ أما انتهيـــت ..؟
قفز وهب هاشا فبادره كنان :
ـــ تظاهر أنك لم تنته بعــــد .
قال وهب مباشرة وبصوت مرتفع :
ـــ انتظر حتى آكل هذه اللقمة ..

قال كنان : انت شقيق مسعد اذن ؟ كنا معا في قبو المالكية .. لقد عرفك جارك هناك (وأشار الى الزنزانة التالية) فور ما ذكرت اسمك .. كانت اخبارك تصلنا قبل أن يعتقلوك .. لقد اعتززنا حقا بصمودك .. عابد حوكم وسينفذ الرفاق الحكم بحقه قريبا لكن اسمع ما هو اهم .. هذا خبر جاءنا صباح اليوم .. سربوهي مختطفة ..

اذاعت المخابرات في الصحف والراديو أن المنظمة اختطفتها .. رفاقنا يشكون في ان تكون لعبة للمخابرات.. سربوهي لم تظهر منذ سبعة أيام .. هات اناءك الان .. كانت عينا وهب تتلقفان كل كلمة يلفظها كنان بلهفة وحرص .. ولم يصح الا على صوت أعلى يطلب الاناء ، فسلمه وهو ذاهـــل ...

** **

سربوهي مختطفــة ..

استولى الصدى على مسامعه ، وملأ الزنزانة أيضا .. أهتز كيانه .. أيكون الامر قد وصل بطغيانهم الى هذا الدرك ؟ كانـــت سربوهي على وشك أن تلتحق بنا في المخابىء والنضال السري ، فهل تراهم قرأوا ما كانت ترسم ..؟ هل وشى بها عابد آخر ..؟ عابد هاهي ـــ يعرف ـــ انه لم يكن بعيدا عنها .. كان يعيش معها تحت سقف واحد .. انه شقيقها الاصغر (روبين) وعدوها اللدود.. كان لا يفتأ يهددها بفضـــح سرها .. وكانت سربوهي تؤكـــد أن وجودها كامـــلا للمنظمة .. كم تمنـــى أن تكون نور في هذا مثـــل سربوهـــي ..

سربوهي مختطفة ..؟ ليت أن كنان لا يصدق .. بيد أن الانباء التي تأتي الى الرفاق في السجون يجب أن تكون أكثر الانباء تأكيدا .. أتراها احدى لعب المخابرات التي راجت في الاونة الاخيرة ؟.. هل أرسلوا اليه بكنان ..؟ أم انهم يلعبون به وبكنان وسربوهي معا .. شقيقها اللعين يعرف كثيراً من الاسرار .. وان اختفت فسيعقد مع المخابرات صفقة ، سيقول للناس : من أجل أختي أفعل .. كـــانت سربوهي أنشط اعضاء الاتصال في المنظمة .. كانت تعرف نصـــف المخابىء السرية في هذه المدينة على الاقل .. التقي بها في بنـــاية عويرة وفي كهف الاحتياط رقم (١) ، وفي اخر مخبأ نزل فيه في بناية

شوری .. احس بالحاجة الى ان يعود الى ذلك كله .. لم يكـــن في بناية عويرة سوى غرفة واحدة جاهــزة للسكن .. من طابقهـــا السادس الى قبوها كانت تنتظر الاسمنت والابواب واشياء اخـــرى قبل أن تفتح ذراعيها للناس .. ومع ذلك فقد نقلت اليه سربوهي أول أيام الاختفاء أمرا بالتوجه الى حارس العمارة . كان الرفـــاق قد اتصلوا به واتفقوا معه على ايواء ثلاثة طلاب جامعيين مقـــابل اجر زهيد .. وكانت المفاجأة المذهلة أن مسعد اخاه كان احد الثلاثة .. كان عليهم الا يظهروا في النهار .. امتحاناتهم ليلية ... وثلاثتهم من الذين اختفوا مجدداً .. وعيون الكلاب ترصد الريح الذي يحمل انفاسهم .. كانوا يطلبون الى الحارس أن يحضر لهم ما يقيمون به أودهم .. وكانوا يدعون الانشغال عن الدنيا بالدراسة ، والفقر .. بعد أيام جاءتهم سربوهي باذن الخروج ، وبتوصيات أخرى .. كان أتعس الثلاثة في الايام الاولى .. شقيقه ، ورفيقه الآخر ، سبقـــاه الى هذه الحياة ، والفا الساعات الطويلة الفارغة ، والجـــوع ، والصبر ... على أنه تعود سريعا .. ولولا نور لكانت اشجـــانه قد هدات منذ جاء اذن الخروج .. انقضى موسم الجامعة .. وامتدت الاقامة أياما أخرى ، راح الحارس بعدها يتساءل : لماذا لا يذهـــب أولاء الى بلادهم وذويهم ..؟ هل ييسر لهم فقرهم أن يقيموا في المدينة لغير ما سبب ؟ وقرأ مسعد الشكوك في عيني الحارس ، واستعجل سربوهي ، حتى اذا قدمت ، كانت معلوماتها هي الاخرى تؤكـــد أن البناية قد صارت مراقبة .. وأن الحارس لم يعد مأمون الجانب .. وقالت انها ستعود بأوامر جديدة في غضون ساعات .. ولكنها غابت يوما آخر كان من اقسى أيامهم .. كانوا ينتظرون أن تداهم البناية في كل لحظة .. ولم يتصلوا طيلة ذلك اليوم بالحارس .. الا أنـــه جاء اليهم دونما طلب ، وعرض الخدمة .. وفي الصباح الباكر هرعت سربوهي اليهم بأمر التوجه الى كهف الاحتياط رقم (١) .. وهناك

علموا أن المكان الذي برحوه قد دوهم بعد ساعات ، وان الحـــارس لعن فطنته وحظـــه . .

وفي كهف الاحتياط رقم (١) تفرق الجمع . . وانتقل وهب الى بناية شورى . . ثمة خلية كاملة . . ويبدو أن المكان كان آمنا . . وان عيون الكلاب قد عميت ؛ اذ سمح له بقضاء المهمات النهارية والليلية؛ وضربت له مواعيد مع مسعد ، وتعود الحياة الجديدة الخطرة . . ولم يحزن الا من أجل نور . . لقد التقت بها سربوهي ، وجاءته بريحها مرتين . . وفي كل مرة كانت رسالة وقبلة ، وأمانة سربوهـــي . . أتكون الخلية قد انكشفت كاملة باختطافها ؟ أي مأزق يكون رفاقه قد وقعوا به ؟ أن المنظمة تمنى بخسائر متتالية . . (يجب أن أعترف) لقد قبض على مسعد . وعلى كثيرين غير مسعد . . ثم جاء دوره . . ودور سربوهي . . وقبلهما سقط غنيم وسقط آخرون من القياديين ومن سواهـــم . . (لو ســـألت كنان عن عدد الرفاق داخـــل هذا السجن . .) لكنه لم يتصور هول الخسارة الا عندما قال كنـــان : (سربوهي مختطفة . .) متى يعود كنان ثانية ؟ ان كل سجين يخدم وجبة واحدة ، فلو عرف عدد السجناء لحدد يوم يعود كنان . . ألن يرسلوا اليه رفيقا آخر . .؟ لئن أنبأهم كنان بأمره فستصله الاخبار بدءا من هذا اليوم بانتظام . . هكذا تعلم أن أمور الرفاق تسير في السجن . . ومع أنه أحس بالارتياح لتصور ذلك ، الا انه ظـــل لا يصدق أن تكون سربوهي آخر الضحايا . . انهم يريدون أن يشوهوا كل شيء . . ان تلتحق سربوهي بصفوف النضال السري فتلك معجزة من معجزات المنظمة . . اليس من الممكن أن تكون سربوهي قد التحقت بالمخابىء فتعمد الطغاة أن يشيعوا الاختطاف ؟ وغرق ثانية في السؤال عن ذلك ، وعن مراسلات السجن السرية الموثوقة ، ولعب المخابرات، وانتظار كنان جديد ، والمدينة ، والمنطقة ؛ وقمة جبل المرام . . .

— ٤ —

على الرغم من يقينه الكامل في أن كنان لن يأتي هذا العشاء ، فقد كان يود أن يكذب اليقين ... وما بين الوجبتين لم يطل الزمن به .. غرق في يم افكاره في البداية ، ثم نوى أن يستلقي ، فما كاد أن يسوي البطانية ، حتى سمع أمر الشرطي الجديد — وكانوا يتناوبون كل ساعتين — بالوقوف ..

وانتظر أن يلي ذلك امر آخر ، سأل الشرطي عما يجب أن يقوم به ، فتلقى عشر شتائم ، وتأكيدا بلزوم الوقوف .. حنق على الشرطي ، ثم عاد فحمد له اخلاصه في تأدية الواجب .. وتصور الشرطي الذي قدم له عند الصباح سيجارة خائنا للناموس في هذا القبر الكبير .. لم يكلمه السجين الذي جاء بوجبة العشاء .. حرفا واحدا لم ينبس .. كان متجهم الوجه .. ولم يشأ وهب أن يفرض نفسه ..

ما أن تجشأ مرة واحدة ، بعدما ازدرد وجبته ، حتى سمع مزلاج الزنزانة يقرقع .. خمن انهم حريصون على نظافة السجناء .. وان الشرطي سيقوده الى المغسلة التي زارها هذا الصباح .. وكاد أن يجزم بذلك عندما رآ الشرطي يقوده عبر المر نفسه .. لكنه ما كاد أن يتجاوز المغسلة ، ويدلف الى ممر اضيق ، واكثر ظلمة ، حتى أيقن ان الامر ليس كما حسبه .. اثر أمتار أفضى به المر الى فسحة تغص بالرؤوس الحليقة .. مد يديه الى شعره يتلمس .. حزر ان هذه الرؤوس لمساجين مثله .. تركه الشرطي بينهم وغاب في باب جانبي .. هش له الاخرون بهمساتهم المرحبة ، والمتسائلة .. هدأ توتره قليلا .. الا ان فضوله ظل كبيرا ..

— الى اين ؟ هل من يعرف ..؟

اقترب منه سجين ذو شاربين كثين ولحية خفيفة ، واسر في اذنيه :

ـــ الى المهجع الخاص في الطابق الارضي .. اين كنت قبل الان ؟

قال وهب : في قبو لا أعرف اسمه ..

قال السجين : هل تذكر ما لقيت هناك ..؟ الان سترى تحت..

تلقوا أمرا بمتابعة السير واحداً واحدا ، فانصاعوا ، وسار وهب حلقة في هذه السلسلة البشرية الطويلة ..

هبطوا فوق درج حاد وضيق وكاد وهب أن يتعثر .. تذكر الدرج الذي صعد عليه أمس الى الزنزانة .. هل يكون نفسه درج اليوم ؟ في الطابق السفلي عبروا ممشى فسيحا ومضاء ، ورأى وهب على جانبيه صفا طويلا من الرجال الذين يرتدون بزآت رسمية . لم يكن باديا على ملامحهم انهم يبيتون نيات خاصة .. تلقى أولهم رأس السلسلة فقذفه بلبطة في خاصرته سلمته الى الرجل الثاني .. أخذ وهب تماما بالمشهد حتى كاد أن يتوقف لولا أن السجين الذي يقف خلفه قد حثه .. لقد بدا له أن الممشى جد طويل .. وتساءل ان كان عليه حقا أن يتحمل هؤلاء الجلادين جميعا .. ان السجين الاول يتطاير من بو طالى جدار الى بوط الى جدار .. في القبو لم يزيدوا على ثلاثة أما هنا !!.. ومض في رأسه الشارع الاخضر .. اين سمع بهذا من قبل ؟.. في الكتب أم في أحاديث الرفاق ..؟ منذ دهور سحيقة اكتشف الطغاة هذه الافانين .. أجل ، دوستويفسكي من قبل عبر الشارع الاخضر .. كان القياصرة ، وكانت سيبيريا .. يتجدد الشارع الاخضر على الدوام ؛ فللقرن العشرين قياصرته ، وعلى الارض أكثر من سيبيريا .. وفي كل مكان تقوم صنوف كثيرة من مذلي الانسان .

تساءل وهب ، وكان قد صار في منتصف الممشى : لماذا يشوه الظلم وجه الارض الرائع ؟ معذبون وطغاة في كل زمان وفي كل مكان .. الم يئن لهذا كله ان ينتهي ..؟ لم يتح له تلاحق الضرب المحموم

بعد أن يحلم بالزمان الذي يسلم فيه وجه الارض من كل تشويه .. وعندما وصل الى نهاية المشى ، نسي حتى أنه يناضل مع هؤلاء المجلودين جميعا من أجل ذلك الزمان .

❋ ❋

تكوموا جميعا في قاعة كبيرة عارية الجدران ، تتكدس في زاويتها القريبة من المدخل أدوات كثيرة .. كان بعض السجناء يتأوه . وكان القهر يتفجر من ملامحهم المكمودة .. كانت أسنان الجميع مكزوزة ، وشفاههم مطبقة على هيئة عصبية .. الا أن أحدا لم يكن يبكي .. لقد بحثت عينـا وهب عن ذلك .. واستشعـر هو بين هؤلاء قوة جديدة .. أجل .. سرت في النفس طمأنينة واثقة .. لقد كـانت الوحدة عسـيرة في القبو ..

همس السجين ذو الشاربين الكثين :

ــ الاغبياء ... لم يسأموا ...

همس آخـر :

ــ ينتظرون أن يكون ذلك منك يا عزيزي ...

علا صوت السجين الاول :

ــ لو أن لهم من الذكاء حبة لكانوا ينفضون يدهم سلفا من كل الذين يجتازون الاقبية سالمين ويصلون أحياء الى هنا ..

وسمع وهب نداء خاصا به .

ارتجف . كان ينتظر أن يكـون كل شيء من الان فصاعدا بين هؤلاء ..

استحثه أحد السجنـاء :

ــ أسرع .. نحن في انتظارك ..

علق آخر :

يبدو انهم لم ينتهوا من التحقيق معك بعد ..

وفي غرفة قريبة من قاعتهم الحاشدة عرض عليه رجل مدني ، رقيق اللهجـــة :

ــ لا زالت قضيتك يا سيد وهب مفتوحة .. وبالتالـــي فان الفرصة لم تفتك بعد .. من ناحيتي ــ وغمز بكلتا عينيه ــ اكاد اشك في أن بعضهم يجهد من اجل ان يخلصك بسلام .. وسريعا .. انظر يا سيد وهب .. لقد رفضت أن تتكلم حرفا حتى الان . اننا سنقـــدر لك هذا الوفاء ، وهذا الصدق ، آن انت عرفت ما يجمل بك أن تفعله بعد ذلك .. أرجو أن تفكر جيدا .. لن اطالبك بكلام أو أسرار .. لن يوجه اليك من الان فصاعدا سؤال واحد ..

واصطنع الرجل صمتا قصيراً تساءل وهب خلاله عما يريد هذا المحقق الخبيث اذن ؟ وعزم على أن يطبق مبدأ المقاطعة بدقة وحزم. تابع الرجـــل :

ــ سأهون الامر عليك .. ان كل شيء سيسير على ما يرام ان انت وقعت هنـــا ..

ومد يده الى وهب بعناية .. ثمة ورقة صقيلة خطت في أعلاها كلمات قليلة .. انها ورقة رسمية .. أمسكها وهب حذرا ، وقرأها بلمحة ، لكنه تظاهر انه يتمعن فيها .. واستمر ذلك قرابة دقيقتين؛ ثم أعاد الورقة الى المحقق ، دون أن يسأل قلما أو يدون رسما ..

قرأ في الكلمات النزرة اسمه ، وأسم أبيه ، وسنة تولده ، وكل المعلومات المدنية الاخرى ، واستنتج من دقتها أنهم يعرفون حسبه ونسبه معرفة كاملة ..

ثم قرأ :

(أعلن وانا بكـــامل وعيي ، وحريتـــي ، انني انسحب مـــن منظمة ...)

اسر وهب وهو مطرق : لو وسعني أن أقهقه ملء شدقي ، لفعلت ، على الرغم من الاذى الذي احسس في كل ناحية من جسدي

المسكـين ..

سأله المحقق مسترسلا في رقته ، ومتجاهلا رفضه :

ـ ماذا قلـت ..؟

كانت كلمات وهب قليلة ، وحازمة :

ـ الموت أولا يا حضرة المحقق ..

وببلاهة ، وأعصاب ثلجية ، استمع بعد ذلك الى المحقق يوعد ويهدد ، ثم كرر كلماته عينها ، بينما كانت تصله من القاعة المجاورة جلبة خاصة ، عرف فيها أن العمل قد بدأ هناك ، وأسف أسفا حقيقيا لانه ليس بين رفاقـه ..

يئس المحقق ، فقال له ، دون أن يفارق لطفه :

ـ هلا عدت اذن ..

وأشار صوب القاعة . نهض وهب وتملكته وهو يستدير خارجا جملة من الاحاسيس المتباينة والرعشة الخفيفة ... وقد شمخ رأسه

— ٥ —

أسف وهب لانه افتقد سريعا الراحة التي أنعشتـه صبـاح أمس ....

ونفصت المرارة روحه وهو يعود الى الليلة الاولى .. لقـد نام ملء ساعاتها .. واغفى عميقا .. لم يسهده طنين البعوض فوق الكنار البني .. ولم تـؤذه رائحـة الفتحة الخاصة بعد ان إنتهت مراسيم اللقاء بينهما .. ولم يقترب الصقيع منه .. وفي الصباح تقلب سعيدا ، وداعب حلما ، كأنه لم يبرح صدر أمه .. اين ذلك كله من الليلة الفائتة ؟ كان عاجزا عن الصعود عندمـا اقتـادوه في طريـق العودة ... وقد كلفـه العجز مزيـدا من

الاذى ... ازدادت الممرات ضيقا وظلمة .. وصارت الادراج اكثر حدة وارتفاعا .. وكان الشرطي الذي تولى الحراسة عقب انتهاء عملية التعذيب ، فظا على نحو منكر .. لقد الزمه الوقوف في زاوية الفتحة ، ومنعه من ان يرفع خياشيمه عنها .. كانت خشيته من آن تخون ساقاه كبيرة .. اما انفه فلم تكن له امس مثل هذه الحساسية الهائلة .. لم تكن الفتحة فواحة امس بمثل هذه الروائح .. ايكونون قد اخذوا ينفخون فيها غاز النشادر ؟ امتنع النوم عليه .. ولم ينفع ان الشرطيين الاخرين كانوا متسامحين .. افتقد كنان بين رفاق الامس .. اتراه اتى في دفعة اخرى .. والسجين الذي جاءه بالافطار اول صباح لم يكن بينهم أيضا .. وهل الدفعات كثيرة ؟ فان كانت كذلك فمتى سيحين دوره التالي ؟ ومتى يعود كنان ثانية ويحدثه ..؟ لم يتأكد امس مما اذا كان كل الذين رافقهم قد سجنوا لمثل ما سجن هو من أجله حقا .. السجين ذو الشاربين رفيق لا ريب .. وثمة ثلاثة او أربعة قرأ في سيماهم علائم المنظمة ... لم يفطن الى السؤال عن ذلك .. بل ما ينفع أن يدعي الغفلة .. أن ارباب السجن لم يدعوا له فرصة للفطنة ولا للسؤال .. مهما يكن من امر ، ألم يكن الاحساس العارم بالتعاطف والتوحد قادرا على ان يخرس كل سؤال ..؟ فهل كل مساجين العالم كذلك ؟ وماذا عن الذين سمع انهم يتشاجرون في السجن حتى القتل ؟ نفر من فكرة التوحيد مع مساجين العالم ، على الرغم من أن النواميس لا ترضي في ثلاثة ارباع الارض .. تشيسمان ملأ الدنيا وشغل الناس بحبسه وعذابه ومصيره فهل يقف معه ؟ في الماضي لم يكن يستقبل هذا السؤال كسجين ، اما اليوم ..

وانتشله من دفق الهواجس القلقة المدمرة صوت سجين ينادي على كوة الباب .. من أجل الافطار .. انه وجه جديد اخر

.. البؤس يسوده ، الا انه لم يكن في سلسلة الامس .. أيكون حتما ان تشوه كل الوجوه التي تحشر في هذه الاركان ..؟ لم يبد على السجين انه يريد ان يتكلم .. فرغ صبر وهب سريعا فهمس وهو ينظر في عيني السجين ..

ـ هل تعرف كنان ؟

سأل مقدراً انه ألقى بكلمة السر . قال السجين وهو يصب الشاي المحروق :

ـ وأعرفك ايضا ..

انفرجت أساريره وسأل ملهوفا :

ـ أليس من اخبار ..؟

القى السجين كلمات نزرة مشوية :

ـ مات نذير .. ألم تكن معهم ؟ عند باب زنزانته انفجر وهجم على الحارس .. انتقموا منه شر انتقام .. وقد يتابعون اليوم معكم جميعا ..

تساءل وهب منذهلا : من يكون نذير هذا ؟ وأي وجه هو بين الوجوه التي انصهر فيها قبل ليلة واحدة ؟ وأحس ان حزنه يتضاعف لانه لم يتيقن من معرفة الشهيد الجديد .. ثم تراءى له ان كل واحد من جماعة أمس قد يكون نذير .. كل السلسلة البشرية تلك ، نذير .. وما دام الاخرون أحياء ، فان نذير لم يمت .. وأوشك ان يقول ذلك لرفيقه الواقف قبالته الا انه لم يقع على احد اذ فتح عينيه .. الى جانب حزنه ضغط عليه حنق هائل .. وتملكته رغبة شديدة في ان يصرخ أو يضرب .. ود لو يقذف بالاشياء التي تناولها من اجل الافطار ، لكنه تذكر في غمرة الهياج والتأثرات ان نذير مات لانه استسلم لسخونة عواطفه .. وكره ان يموت هو لهذا السبب .. تربع امام كوب الشاي وقطعة الخبز المنفوخة السمينة ، وعجز عن أن يزدرد لقمة واحدة ..

جتى رشفة من الكوب المسود تعسرت على حلقه .. كان يجهد في ان يتصور نذير .. انحصرت أمانيه في ذلك .. كيف كانت صورة ذلك الانسان ..؟ انه تعذب أضعاف ما كان لهم جميعا حتى اهتاج وانهار ويسّر للقتلة ان يفتكوا به .. ليس نذير أول الضحايا .. هز وهب رأسه .. انه يعرف جيدا .. ولن يكون نذير آخر الضحايا .. من يدري ماذا يكون مصيري هـذا المساء .. قـد يتابعون اليوم معكم .. وان لم أمت الليلة فمن يدري اني سأصل الى نهاية الرحلة ؟؟.

لقد عالج هذه الاسئلة في الماضي كثيرا .. الا انها تكتسب اليوم مذاقا جديدا .. طعمـا خاصا .. لا بالحلو هو ولا بالمـرّ كانت في الماضي اما حلوة واما مرة .. اما أن الموت ضروري واما ان الحياة أثيرة .. الموت يأتي قدراً والحياة تأتي قدراً فهل يقلبه الحالين الى خيار وارادة ؟ يوم جاء خبر الرفيق جول ــ وكان في كهف الاحتياط رقم ـ ١ ــ ، حزن ، وغضب ، ونقـم لكن ذلك كله لم يكن بلون اليوم .. قيل انهم كانوا ينفخون جـول من استـه بمنفاخ الدراجة العادية حتى يتطبل جوفه ويوشك على الانفجار ، فيدوسون فوقه ، ويرفسونه حتى يفرغوا الهواء المحقون من جميع منافـذ جسمه .. هل أعادوا السيرة مع نذيـر ؟ أم ان عبقريتهم تتفتق في كل عرض عن ابداعات أكثـر معاصرة .. مما يليـق بالنصف الثاني للقـرن العشرين .. وبالقمر الذي هتكه العلم ..؟ كان جول نائبـا لرئيس المنظمة ، وكان أصلب المناضلين .. لـم يقولوا له انسحب كما طلب مني ذلك الرجل اللطيف آمس .. ولم يطلبوا منه اعترافا بواقعه كما اراد النقيب هاشم او الرائد عبد المنعم .. كان كل ما يريدون منه : حياته ، وجنوا للنصر .. أن راس المنظمة المدبر ، وعصبها الاول قد تحطم .. ولكنهم لم يلبثوا ان اضطروا الى انكار كل شيء عندما الهبت جماهير المنظمة الارض

والسماء .. ووصل من داخل جهاز السلطة الى المنظمة ــ بطرق خاصة ــ ان تعليمات قاسية تحرم الافراط قد وجهت الى جميع رؤساء الاقبية والسجون .. هل سيعود التهليل لموت نذير ؟ وهل سيتلوه الانكار ان عاد ..؟ اية لعبة جديدة من الاعيبهم هذه ..؟ منذ زمــن ، ليس بالبعيد ، صرعوا الرفيق جبر العاصي في عقــر داره .. اوقفوه عشرة ايام ، واختفت اثاره تماما ، ثم ظهر فجاة خلف باب داره مقتولا .. رصاصة واحــدة في صدغه كانــت ، ومسدسه امام عينيه .. لقد انتحر الملازم جبر العاصي .. لقــد اختطفت الانسة سربوهي .. لقد انتحر وهب بن عفيف المختار .. الى متى تستمر المهــزلة يا ســادة هذا السجن ويا سادة كـــل السجون ..؟ كان في بداية اشتغاله بالمهمات العملية ، ينكر على السادة أن تستبد بهم الوحشية الى الحد الذي ترويه الاساطير .. أما اليوم فهو يغفر لهم .. ان الصدام نهائي .. اما ان تكون قمــة جبل المرام ، واما ان يكون السادة واقبيتهم وسجونهم ..

وانتزعه من خواطره صوت رفيقه ناقل النبأ نفسه .. اجفل وكاد ان يثور ..

ــ لم تأكـــل ..

خاطبه الرفيق .. فلملم اشياءه ، وبينما هو يسلمها ، سأل :

ــ كيف مات نذير ..؟

ــ الم تسمع بمن حفر قبره بيده ..؟

ــ ...

ــ كذلك مات .. (غضّ السجين وقد زاد همه ..) ليتهم شبعوا من موته .. (ولم يستطع أن يتابع) .

انعقد لسان وهب .. اراد ان يحرك تلك القطعة اللحميــة القابعة في حلقه فأبت .. بحث بعينين زائغتين عن الحارس فلــم يقع عليه .. لم يرد في تلك اللحظة الا ان يرى الحارس .. قــرأ

السجين ما يجول في راسه ، وقال :

ـ آنه بعيد ، ولا ينظر آلينا .. هذا من اولاد الحلال .. لقد وصلت نشرة نذير الى مهجعنا امس فقط .. وغاب الصوت ... ولبث وهب جامداً .. لا حراك .. حتى في القلب لا حراك .. ومرت دقائق مرة ، قبل ان يسمع أن نشرة نذير وصلت امس فقط .. لم يكن مع نذير اذن ... لماذا حرم من ذلك ؟ تضاعف الاسف وغص .. لقد عزّ حتى التصور .. حفر قبره بيده ثم ..؟؟ اي مستقبل ينتظر ..؟ انهم لم يكونوا شرسين كذلك في يوم من الايام .. انها حشرجة الموت لا ريب .. ما هم يا نذير ان يجنوا .. قبلك وقبل جول وجبر كان الزبير بن العوام وكانت امه .. وكانت الشاة التي ما همها السلخ بعد الذبح ...

ثم جلس وهو يجتر مكنون نفسه ، وينتظر رفيقا جديدا يوصله وقت الغداء بالحياة والخارج ...

- ٦ -

« كنت عجولا اذ توهمت الراحة يوم تركت القبو » ... اعترف ساخرا وهو يخترق بعينيه الستارة التي فصلوا بها بين السيارة والعالم الخارجي .. كانت السيارة تهبط .. انها في طريق العودة من السجن .. لن يستطيعوا ان يخفوا ذلك عنه مهما اغلظوا الاسداف .. أسف لانه يبتعد عن القمة الحبيبة .. جدد وعده واكد حبه .. مع الاخرين يعود .. والطريق الى قمة جبل المرام لن يقطعه سجن .. كل الذين تحت يصعدون .. كان يحسب انهم انتهوا من امره اذ نقلوه من القبو الى سالول ابو ريحة واسعده الوهم في الليلة الاولى .. لكنهم واصلوا ملاحقته .. صار العشاء موعداً لوجبتين .. واحدة في الزنزانة

يأتيه بها سجين مثله ، وواحدة في الطابق السفـلي ، جماعية ، وطويلة ، يأتيه بها مضيفون بلا عد ..

المحقق اللطيف ظل يردد ثلاثة ايام على التوالي : انسحب تنج .. انسحب تنج .. انسحب تنج .. وفي كل مرة كان طبق العرض جديدا .. القادة سبقوك يا وهب .. الم تقل انك رايـت الرفيق غنيم في القبو ..؟ وفلان وفلان وفلان ... لقد عدّ لـه عشرات .. حسده لانه يحفظ اسماءهم جيداً .. لا شك انه درس تاريخ المنظمة بحذق .. اجل ـ قال وهب ـ اعرف ان عشرات انسحبوا ، وبيني وبينك يا حضرة المحقق ، عشرات ماتوا ، الا ان وهب لن يفعل ما تريد .. وعجب لان المحقق لم يقنط مرة واحدة ولم ينهره اطلاقا .. لقد اذكره في كل جلسة بنزق النقيب هاشم وعصبيته المهتاجة ..

ـ يوم تصل الى مهاجعنا تجد حلمك ...

قال له رفيق جديد كان يقوم بخدمة السجن ، اذ اسر لـه وهم الراحة ، وخيبة الامـل ... من الزنزانـة الى المهجـع او (السجن الجماعي ..) ليست المسافة شاسعة في مبنى السجن، إلا ان زمنا مديداً يلزم ـ كما يبدو ـ من أجل ان يقطعها المرء ... اما هو ، فانه يقفل عائدا الى السفح .. يخرج من السجن .. الى اين ؟ التمتد به المسافة عذابا اخرا ..؟ قال لـه المحقـق انهـم سيقودونه هذا المساء الى القبو الذي قدم منه . ثمة دربان الى الحرية .. اما أن يكون من السجن الجمـاعي اليـها ، واما مـن القبو .. كذلك قالت سبابته التي اشارت الى الاختيار .. لم تكن السيارة تقضي اكثـر من ربع ساعة لتقطع ما بين السجن والقبو .. عرف ذلك يوم صعدوا به على هذا الطريق .. ولكن نصف ساعة قد انقضت الآن قبل ان يصل .. لا شك ان الشوارع فـي عنفوان ازدحامها .. الساعة تقترب من التاسعة .. كل من فـي

المدينة قد خرج الى الغروب والليل ... وندى تموز والنهر صافحتهم عيناه على الرغم من الحواجز ، وود لو يبحث بينهم عن نور .. لماذا لم نسر معا مثل الناس كل هذه الشهور يا حبيبة ..؟

* *

أذكره المرافقون في السيارة بأولئك الذين اقتادوه من موعده مع عابد الى القبو .. هؤلاء أكثر رقة .. ولكنه عائد الى النقيب هاشم ومن كان مع النقيب هاشم ..

ـ هل ثبت الى رشدك يا وهب ؟

اكد انه لم يضع رشده من قبل ، فضحك الرائد ساخرا وقال :

ـ انت على استعداد للتعامل معنا اذا ..

ارتد وهب فزعا .. هل تريدون غنيم آخر ..؟ لم يفه ، وانما تحركت شفتاه ..

قال الرائد جاداً بعد برهة :

ـ لم تتكلم ولم تنسحب .. انت تعرف هذا .. وهما لا يجوزان لك معا .. اختر احدهما يا وهب .. لعلك لمست أن مزيداً من المكابرة لن يجديك فتيلا ..

أعقبت لحظات مشحونة ، قبل ان يهزّ وهب رأسه معلنا انه لن يتكلم ولن ينسحب .. وأنه يرفض هذا الاختيار .. وكان ينتظر ان يباشر الزبانية مهامهم سريعا .. الا ان الرائد حدق فيه طويلا ، ثم سأله ببرودة :

ـ هل تريد ان ترى نجاح ؟

وقع السؤال على رأسه موقع الصاعقة .. نجاح ؟ وهل وصلت اليها أيها الوغد ..؟ ما الذي جاء بها الى هنا ؟... انت تعرف قبلي انها ليست عضوة .. وانت تعرف ايضا انها ليست اكثر من طفلة .. طفلة كبيرة أيها الرائد المبجل ..

هل تتفتق عبقريتك انت أيضا ؟

لم ينتظر الرائد جوابا .. ولـم يأبه لمـا اعتمل فـي نفس وهب .. نادى على الحاجب ، وأمره بأحضار نجاح . ودلفـت إبنة الستة عشر .. دلفت ربيعا غضا وشاحبا .. وجالت عيناها بين الرائد والرجلين الاخرين قبل أن تصلا الى شقيقها .. وعندما تضامت الاعين همت أن تندفع ، وهمّ ان يفتح صدره .. لكنهما توقفـا معا في لحظة واحدة .. وامتد الصمت .. فثقلت على الرائد الخيبة . نهر نجاح :

ـ لماذا لا تصافحين اخاك يا آنسة ..؟

لم ترد . اتجه الرائد اليه مكشرا ، ومومئا بيده :

ـ سلم عليها يا وهب ..

فلم يتحرك .. وبعد قليـل انفصلت الاعـين الشقيـقة ، واتجهت جميعا الى الرائد عبد المنعم ، فاصطنع الضحك ، وقال مخاطبا وهب :

ـ هل تعرف ان شقيقتك مناضلة خطيرة ..؟ أراهن ان لـم تكـن نزلت من بطن امها كذلك .. أبوك وأمك ..

وسمع مع الشتيمة قهقهة انغرزت فـي جبينه خنجـرا مسموما .. نجاح أطرقت ، وتصدى هو للسهم مشدود البنيان.. احسّ ان عبد المنعم قد امتهنه على نحو لا يقل فظاعة عن يـوم اللواط .. وأراد ان يقول شيئا أو ان يصنع شيئا .. ثمة نـار اضطرمت في انحاء الصدر تدفع .. لكنه افتقد كل شيء سوى إبتسامة مرة قاتلة .. شك بها وجه الرائد وهو يهنؤه على الفوز الساحق ..

امتعض الرائد واتجه الى نجاح بصوت غليظ :

ـ نعم يا آنسة .. مـاذا تقولـين لهـذا الضال ؟ الا ترين شقاءه ..؟

قالت نجاح وقد ابصرت شعر وهب وذقنه لاول مرة منذ أن دخلت :

ـ اخي ليس ضالا يا حضرة الضابط .. الضال هو من يشتم الاخرين ويعذبهم .....!.

ولم تستطع ان تكمل العبارة .. اجهشت في بكاء صامت حار ..

ـ آخرجي .. ساقطة أنت الاخرى ..

امرها الرائد ، والسكين لا تزال تفري كبد وهب .. ضغط الرائد فوق منبه خاص ، وفرك اصابعه . قرع الباب ومد رجل راسه . قال الرائد :

ـ ادخلها ..

فاذاً سربوهي ..

دار المكان بوهب وكاد ان يرتمي قبل ان تلتقي عيناه بها .. لم يبد عليها انها فوجئت لمرآه .. ابتسمت له ، وحيته براسها فنهض بمشقة من تحت الدهشة ورد التحية .. وقفت بثبات قبالة الرائد .. مع الانتظار كان وهب يستفيق رويداً رويداً ، ويتبين سربوهي امام عينيه حقيقة لا وهما ولا خيالا .. سال الرائد اخيرا :

ـ تعرفها ..؟

تردد وهب قبل أن يؤكد :

ـ نعم ..

وتذكر انه أنكرها أمام عبد المنعم نفسه . ضحك الرائد وساله ايضا :

ـ ما علاقتك بها ..

لم يهيء الجواب هذه المرة .. رمى سريعا :

ـ لا شيء ..

علا صوت الرائد فجأة :
ـ ماذا قلت يا سربوهي .. اعيدي كل كلمة أمام هذا الكلب ..
وبمشقة نفذت كلمات سربوهي الخافتة المتقطعة الى مسمعه :
ـ كنا معا في خلية واحدة .. اجتمعنا خمس مرات .. ووزعنا منشورا واحدا ..
كان نزرا ما قالته ، ولكن الذهول أمتلكه قبل أن تفرغ .. اتكونين قد هنت يا سربوهي ؟ كيف تلفظت بحرف واحد ؟ لقد اختطفوك اذن !! وها هم يسقطونك !! صمم على الا يتفوه بعد الان .. ليكن ثمن الصمت ما تشاء له سربوهي أو ما يشاء عبد المنعم .. لقد انكرت كل كبيرة وصغيرة ، من اجل أن تأتي ايتها الرفيقة لتهدمي كل ما بنيت ..
ـ لن يجدي التجاهل او السكوت .. ولن تجدي المقاومة .. أننا وراءكم خطوة خطوة .. ولولا أثر من رحمة لانهرس اكبر راس مع اصغر رأس .. اسمعا جيدا .. ليست من فرصة اخرى ..
كان الرائد يخاطبهما معا .. وقد انتشل ذلك وهب من الغمار الذي اغرقته فيه كلمات سربوهي .. تابع الرائد :
ـ وقعا الانسحاب الآن وعودا الى الدنيا ..
اطلق وهب ثورته :
ـ لا ..
وعندما تلاشى صوته الرافض الغاضب في سماء الغرفة ، تنبه الى انه سمع (لا) اخرى .. أتكون سربوهي قد قالت ؟.. شد عنقه اليها ملتفتا بغتة وحدق عميقا ، واطبقت الحيرة عليه اكثر فاكثر ..؟؟

- ٧ -

ارتسمت له الفرفة ـ وهو يدلف اليها ـ صديقا قديمـا ، واكد ذلك في نفسه ان الحارس الذي يقف على بابها كان نفسه الذي عطف عليه ، وترفق به في ليلته الاولى هنا . سمع وهـو يعبر المر لفطا في الصالون . أصوات نسائية حـادة ومختلطة على نحو هائل . أمضى ساعته الاولى وهو يتساءل عما جاء بنجاح الى القبـو ..؟ وعن أعتراف سربوهي .... ولم يستطع ان يهدأ الى جواب ، فراح يجتر لقاءه بهما ، ويستعيد صورة كل منهما . لقد كبرت نجاح في الشهور الستة التي لم يرها خلالها ، ويبدو انها تسير على درب الشقيقين مسعد ووهب .. والا فمن أيـن كانت تأتي بذلك الجواب الذي أثلـج الصـدر وهو يصفع عبـد المنعم ؟.. فقط لو انها لم تبك .. واحس بقلبه يتدفق حبا لها ، وعطفا ، وأسى ... وسربوهي والابتسامة الاولى ألتي لم تبهت .. لقد ازداد قوامها نحولا وشحوبا ، والعهد به ريان يتدفق شبابا .. الا أن البأس لا زال وجهها ينطق به وخطواتها ، وكلماتها .. فكيف هانت ؟ وكيف اعترفـت ..؟

وجاءه صوت المفتاح يلعب في ثقب الباب . حدق الحارس في عينيه برهة ثم قال :

ـ لقد خرجوا جميعا .. الا تريد ان ترى شقيقتك ..؟

شب وهب واقفا ، وهو يكذب سمعه . هتف :

ـ اجل أيها العزيز ..

قال الحارس :

ـ سأدعوها الى دورة المياه .. ستترك لك الماء جاريا وتقف هنا .. أما انا فسأتجول هناك (واشار الى نهاية المر المفتوحـة على منعطف يميني ..) فاذا ما اشرت (رسم بيده) تعـود هـي

كالبرق وتختفي انت .. اياك ان تنسى الباب .. والصوت ايضا .. لا صوت هاه ...

كذب وهب اوهامه ثانية ، ولبث مبهوتا ، ثم نوى أن يقبل الرجل الذي غاب سريعا كأنما ينفذ مهمة خطرة فورية ..

تأمل ما شهدت اللحظات المنصرمة .. ماذا يكون لو أنهم يضبطونه يتعاون معنا ..؟ وهل يعقل أن يكون رفيقا من غير ان ادري ..؟ ان سربوهي تعلم بلا ريب .. لم يكن لطيفا معي الى هذا الحد في المرة الماضية .. صحيح أنه نقلني الى المرحاض اذ كنت عاجزا .. وصحيح انه تركني اقضي ليلتي الاولى من غير أذى .. ولكن ماذا يعدل ذلك ازاء هذه المخاطرة ..؟ وجاءت نجاح .. ارتمت في حضنه قبل ان تجري الماء كما في الخطة .. ففعل عنها الحارس ووجهه يفيض رضى ... وامطرها وهب المحروق بأسئلة لهفى ، بينما كانت هي تداعب شعره وذقنه .. أحست آنها قطعة منه .. ورآها هو اقرب اليه من كل ما كان في الزمن الاول ..

قصّت عليه أن دورية جاءت بها بعد ا نأخبرت والديهما .. وقالت ان المسؤولين ارادوا ان تنوب عن الاسرة في مشاهدة الابن الضال .. وان تنقل له رسالة الاهل فلعل وعسى (...) وسألها عما أوصت به أمه خاصة .. ثم الحت عليه صورة نور .. ليس في الاسرة من يدري من امره معها شيئا .. ولم يكن يريد ذلك قبل زمن آخر .. ايدع فرصة هذا اللقاء دون ان يسمع عنها كلمة ؟؟. وحضرت الى الخلد سربوهي بينما كانت نجاح منساقة في ثرثرتها الجذلى .. ان سربوهي ستحكي أكثر .. ليس عن نور وحسب .. المنظمة والاختطاف والاعتراف .. وأحس بالحاجة الى اللقاء بها تتضاعف .. وانقلبت الحاجة ضرورة .. لكن ما الوسيلة ..؟ ماذا سيقول الحارس عن طمعه ؟ واقر أنه لو خير بين اللقاء مع سربوهي أو نجاح ، لقدم الاولى .. لم يغب

شروده عن شقيقته فسألت :
ـ بم تفكر ..؟
لم ينكر : كيف اقابل سربوهي ..؟
اندفعت نجـاح : سأقول للحارس ..
رضي بالحيلة .. واسعده ان الحارس لم يرفض .. بل لم يمتعض .. وجاءت اليه سربوهي ضاحكة كعهدها .. تشمـخ بفرتها كمهرة ، وشدت يديه وكتفه ..
ـ كنت واثقة اننا سنلتقي مثل هذا اللقـاء قبل ان نغادر القبـو ..
انسته الغبطة ما اعتمل منذ قليل في صدره وهو يسمـع الاعتراف .. تراءت له في عينيها ايام الشقاء الاولى ، والاختفاء ، والترقب ، ونور ، ومسعد ، ومسؤول الفرقة ، والمخـابىء ... حتى نساء بلاده جميعا حضرن الى مقلتيها فرآهن في ومضتهـا المؤثرة . لم تنتظر ان يسأل .. اندفعت :
ـ أعقب اعتقالك تضييق هائل.. بدا كأنهم يقذفون بورقتهم الاخيرة .. ولا شك أن شقيقي روبـين انسـاق معهم الى آخـر درك ... كان علي أن التحق بالمخابىء فوراً .. او أن انتـظر تشريفهم في اية لحظة .. لم اتردد .. فجنّ جنونهم .. وجـن جنون أهلي أيضا .. لا تستثن احدا .. أقصد ليس روبين وحده .. أشاعوا الاختطاف وملأت صورتي الصحف (ضحكت معتدة) ، وكان علينا ان نتحرك بأقصى قوتنا لصد الموجة المحمومة .. اتدري اين أعتقلت ؟
كان وهب يتلقف كل حرف .. وعجز عن أن يتخيل المكان الذي قبضوا فيه عليها .. لقد لذّ لـه أن يستمـع وحسبب .. تابعت :
ـ لقد انكشف كهف الاحتياط رقم ـ ١ ـ لن تسألني الآن

كيف .. المهم انه لم يكن في الكهف حينذاك غيري .. هل احدثك عما فعلوا بعد ..؟

واطلقت ضحكة مشوبة بالمرارة والهزء .. وقرأ الالم في جبينها فغض .. (لا حاجة بك لان تقصي) تكلم وهب للمرة الاولى وأردف : ماذا قلت لهم بالضبط ..؟ قالت :

ــ لم يكن منطقيا أن انكر على طول الخط .. كان.لا بد ان اقذف بطعم .. لا تهتم لقصة الخلية والمنشور الوحيد والاجتماعات الخمسة .... اتعرف الى ماذا وصلت اخيرا ..؟ انهم لا يبحثون عن معلومات اخرى في هذه الايام .. انهم يريدون الانسحاب .. يجب ان نعترف انه صار لديهم من الاسرار ما يكفي .. ومع ذلك فقد اعجزهم ان يوقفوا المنظمة خطوة واحدة أترى ..؟ انهم يحاولون التحطيم بأسلوب جديد .. أن يخلوها من الاعضاء فماذا يبقى ...؟

تساءل وهو يستمع ، وقد عاد ينظر اليها ، عما اذا كان قد خالف المنطق اذ انكر على جميع المحققين انكاراً نهائيا .. وهل يكون تحمل كل ما تحمل وهو يسلك دربا خاطئة ..؟ لم تهتم الى شروده .. كانت تسابق الزمن ، وتسعى من اجل أن تقول اكثر ما يمكن :

ــ التقيت بنجاح هنا منذ مساء أمس .. ونمنا في الصالون .. معنا كثيرات لم يؤذوا اية واحدة منا .. بعضهن زميلات نور في دار المعلمات .. لا تظن انهن جميعا من رفيقاتنا في المنظمة .. الاوغاد يسعون من أجل ان يحفروا بيننا وبين الجماهير .. فمن رات عضوا أو عضوة على مسافة ميل يتحتم أن تحضر الى قبو ما .. لماذا ؟ لان اهلها سينقمون على اصل البلاء .. وتنعزل المنظمة اذن ..

قال وهب :

ـ الناس تعرف أصل البلاء ..

وهم ان يفلت مما اثاره قولها في قرارته من خواطر وكلمات ، الا ان عينيه وقعتا على يد الحارس ترسم حركة خاصة .. لم يتثبت مما اذا كانت اشارة أم لا .. ومع ذلك فقد قطع رغبته وسال عجلا ، وقد تبدلت ملامحه ونوى أن يختفي :

ـ الم تري نور قبل أن تذهبي الى المخبأ ..؟ الا تعلمين من...

هذه المرة تبدت اشارة الحارس من غير لبس .. لم يقل لها اذهبي .. اختفى كالبرق وأوصد الباب مصوتا او غير مصوت لا يدري .. ثم هرع الى زاوية الغرفة وقد تقبض قلبه .. أتكون سربوهي قد ظنت وأنفة ؟ اتكون الخطة قد أخفقت ؟ أيكون الحارس المسكين قد افتضح معهما ..؟

لم تمتد به الخواطر .. جاءه الصراخ المجنون سريعا :

ـ ماذا تفعلين هنا يا قحبة ...؟

وانفتح الباب عن وجه لم يطالعه من قبل .. هب مأخوذا وقد اصفر.. وسربوهي والحارس قبالته خارج الباب أبأس حالا. كشفت عينا الرجل القطيتين المؤامرة من أولها الى آخرها .. قراها في سحناتهم واحدا واحدا ..

هتف بوهب :

ـ حتى هنا يا ابن الكلاب تعقد أجتماعات واتصالات ...

وانهال بيديه ورجليه وجنونه وغيظه فوق وهب الذي ظل جامداً كصخرة ؛ بينما كانت سربوهي تحبس الدموع والهلع ، وكان الحارس يخفض هامته مسلما ...

الفصل الثالث

اليـــوم الاول

« خلف القمة ، كانت الشمس قد غابت ، مخلفة صفرة محمرة تصبغ مرآة العين ، وكنت استرق النظر ، وانا اعبر باحة فسيحـــة لم اشاهدها من قبل في السجن ..

في السيارة التي نقلتني ، وفي القبو ايضا ، لم اكن أقدر ان أرى الشمس ، ولا القمة ، ولا الغياب .. حزرت وهم يتجهون بي الـــى احد الابواب الخفيضة الضيقة انني ذاهب الى سجن جماعي .. الى مهجع كما سمعت أحد رفاقي يسمي على باب سالول ابو ريحة .. وقد اغتبطت وتذكرت من قال لي ان الزج في المهجـــع يعني اجتياز المراحل بسلام .. حقيقي ان الاحكام لم تصدر بعد.. ولن تصدر.. وحقيقي انك هنا رهن الاحضـــار والابداع الذي تجود به عبقـــرية السجانين والآمرين والمحققين . ولكنك ، رغم ذلك ، لا يفرق فؤادك .. انك بين أولاء الذين انصهر روحـــك في روحهم منذ طلعت بكـــم المنظمة الى الميدان ..

لم اكد اخطو خطوتي الاولى داخل المهجع ، حتى هب كل مـــن

فيه يؤهل بالضيف الجديد الذي يعرف سلفا ان اقامته ستطــول هنا .. لم أكن احمل شيئا البتة .. وقد فطنت الى ذلك اذ وقعت عيني على حقائب كثيرة ، وانا اطوّف المكان بنظرة خاطفة .. كان الازدحام شديدا في باحة المهجع الواطئة ، وفوق الكنار العريض الذي يعلو قليلا ، والذي اذكرني بالمصطبة في بيت خالي في الريف . كان كنان على رأسهم .. كنان نفسه .. فتح صدره وبسمته وعينيــه واحتضنني.. وبأسمهم قال لي كلاما اسكرني.. لم أكن أعرف قبلا انني استحق كل هذه المحبة .. لقد تولى هو تعريفي بجميع الرفاق المساجين ، وقال : ليس بيننا غريب في هذا القسم من السجن . لقد فرضوا الحجر في هذه المهاجع على النوعية الخطرة من الرفاق .. فحققوا لنا ما لم نكن نحلم به .. اليس كذلك ايها الرجال ؟ واجابته ضحكات مجلجلة سعيدة .. مضت ساعة على الاقل قبل ان تتحلل الحلقة التي أحاطت بي فوق بطانية احد الرفاق . قال الرفيق عزت الذي كان متربعا قبالتي :

ــ أوه .. لقد نسينا أن نقدم لك حق الضيافة ..

كانوا يصرون على أن أروي لهم تفاصيل حكايتي الدقيقة مــع عابد ، وفي القبو ، وفي سالول أبوريحة ، حيث استعنت بكنــان ، حتى اذا أنهيت ذلك كله ، كان الامر قد هان عليّ وأنا أرى عيونهم تلاحقني ، وانصاتهم يغريني ..

قال كنان : في السجــن تحلو الحكــايا .. ويعزّ الماضي .. ستجد نفسك تعيد روايتك مرات ومرات ، وستسمع الى الاخرين وهم يقصون عليك اخبارهم للمرة العاشرة .. ولن يعرف الملل يوما هذه الحكايا التي تقتل الوقت هنا وتحيي الهمة ..

تلذذت بكأس الشراب الذي أعده عزت ، لكنه حرك أمعائي ، وقد علمت ممن حولي أن عشاء السجن يكون قبل المغيب .. ومــع ذلك فقد جادت عليّ خبايا عدد من الرفاق بما أتخمني .. ولم يلبث

الضوء الشحيح في وسط السقف أن انطفأ . فهمس جاري الرفيق سيف في أذني :

ـــ حان موعد النوم .. يطفئون الانوار في الساعة التاسعة ، ويبدأ التفقـــد ..

سألته عما يكـــون فيما لو أن أحدنا لا ينام فقـــال : انهم اذا اكتشفوا الامر لا يسكتـــون ، ومع ذلـــك فان كثيرين في كل مهجـــع يسهرون بعد التفقد ما يحلو لهم ..

لم يكونوا قد سلموني اية حاجة مما شرح سيف انهم يعطونها للسجين .. ولم تكن بي رغبة للنوم .. لكن السكون الذي يلف المهجع قسرني على أن أغمض .. حضرت الي صورة السالول والبعوض الناشط في سقفه .. فتحت عيني وحاولت أن أسبر العتمة ، وأكتشف سقف المهجع .. هناك كانت الفتحة اللعينة (أم ريحة) .. وهنا ، في زاوية المهجع المقابلة للباب لاحظت أن ستارة صغيرة من الخيش المثقوب تقوم . عرفني كنان أن دورة المياه والمغسلة خلـــف تلـــك الستارة .. لم أر الامر كريها كما كان في السالول . الا أني لم أصدق أن هؤلاء الرفاق جميعا وهم أكثر من عشرين ، قد عاشوا شهورا بل سنين كاملة قبلي في هذا المكان .. دون أن يبرحوه ، لا في الليل ولا في النهار ، الا الى الخدمة أو الى التعذيب .. أن أمتار المهجـــع لا تربو العشرة في الطول ، ونصفها في العرض ، ومع ذلك فان كل هذا العدد من البشر يحبسون فيه يوما بعد يوم ، وزمنا اثر زمن ، وفي كل الساعات والدقائق . (سيكون عليك أن تتمشى بين حين وآخر هنا .. تلك هي الفسحة الوحيدة للتنفس والحركة) علمني كنان أول وصولي ، وأشار الى باحة المهجع المنخفضة ، وقال ايضـــا : (ان فسحات الحركة والتنفس في سجون العالم تكون خارج المهاجع الا في هذا السجن) . فعجبت لحرصهم الشديد علينا .. لقد حاولت أن أستعيد وأنا أنتظر النوم كل ما تعلمته خلال الساعات القليلـــة

الفائتة .. تلك هي حياتي الجديدة .. سيكون عليّ ان ائتلف مع الصغيرة والكبيرة فيها .. وبأقصى السرعة يجب ان افعل .. لم يقولوا لي كل شيء .. كل الذي حدثوني اكدوا أن هناك كثيرا مما لا ينقل ، ولكنه سيعاش .. يعاش فقط .. فماذا في حياة المهجع مما لم أجربه قبلا ؟

في القبو تضافر عليّ الجوع والوجع والوحدة .. وفي المخابىء والشهور الخمسة عرفت الارض الجرداء والسماء العارية والانتظار، وقتلت الوقت مرات تلو مرات وانا اعد عشرة عشرين والفا الفين ، ثم أعود فأعد تثنية وتثليثا ، صعودا ونزولا ، وقلقت ، وافتقدت العشاء والغداء والافطار .. فبماذا يعدني كنان وغير كنان هنا ..؟ سمعت وانا أوشك أن أغرق في خواطري وقع أقدام تقترب ، ولم يلبث أن فتح الباب بغلظة ، ورايت وانا شد على جفني ضوءا خاصا يطوف بأنحاء المهجع . وما كاد ذلك كله ينتهي حتى عجبت لعودة الحياة الى الجميع . بصت سيجارة في زاوية قريبة من دورة المياه ، وتسرب الهمس ، من اكثر من مكان ، ودسّ سيف يده في خاصرتي فأكدت له انني لم أغف . اقترب مني حتى كاد أن يلاصقني ووشوش:

ــ الليل طويل ... ستضجر من النوم ..

ادركت انه يدعوني الى السهرة والكلام . قلت :

ــ افرض أنهم باغتونا ..

قال واثقا : انهم لا يفعلون .. لقد جربناهم .. وصرنا نعرفهم أكثر مما يعرفون أنفسهم . ووصف لي كيف تنمو العلاقة بين السجين وسجانه ، وكيف يكون التأثير متبادلا وقال ان الامر يختلف هنا كثيرا عنه في الاقبية أو السواليل .. حتى في الغرف المتوسطة لا يتشابه الامر معه هنا .. وراق لي الامر حقا .. ان الفة خاصة تنمو بين النقيضين ... الانسان حيوان أليف .. من قال ذلك ؟.. لكن السجين يظل أذكى .. أكد سيف .. ويكون أقدر على قراءة سر

السجان .. ان السجن يشحذ البصيرة ، ويصقل الرؤى ، ولا يتردى فيه المناضلون الاصحـــاء .

سألته عن الغرف المتوسطة ، ولم اكن قد سمعت بخبرها ، فضحك ، واقسم انني سأقضـــي عشر سنوات في هذا السجـــن ، وسأخرج بعدها وأنا أجهل الكثير من الغازه ..

سألني عن سواليل ابو ريحة فتباهيت بمعرفتي ، وبدا انـــه يستمتع بي ، وخلت نفسي ـ متأخرا ـ غض التجربة ، ولا يجمل بي أن أتباهى ، فقطعت جوابي ، وسألته عن السواليل القبـــرية ، وكان قد ذكرها ، وقلـــت :

ـ هل عشت فيها ؟

قال متأنيـــا :

ـ لن أحكي لك الا ما عرفته بنفســـي .. وبيننا هنا كثيرون عرفوا زيادة عني .. لقد جئت يا عزيزي من سالول أبو ريحة الينا دفعة واحدة فهل تحلم بحظ أسعد من ذلك ..؟ أتعرف كيف كـــان يجب أن تســـير ؟

انكرت ، على الرغم من أنه لم يكن ينتظر جوابا كما بدا . قال :

ـ الغرف المتوسطة هي المرحلة الثانية .. أنها ليست بعيدة عنا . في هذا الطابق .. نفسه .. وكل منها تتسع الى استلقـــاء ثلاثة أشخاص الا أنهم يحشرون فيها ضعف ذلك العدد أو ضعفيه . ان أصحاب هذا السجن يلعبون في تلك الغرف لعبة خبيثة .. ولكن الرفاق كشفوها .. في كل غرفة يدس سجين من جواسيسهم ويكون من المستحيل عليك أن تعرف أيا من هؤلاء الذين يشاركونك حيـــاتك ومصيرك هو الجاسوس .. يسلخون جلدك وجلده .. ويحققـــون معه أمام عينيك ويحرمونكمـــا معا النور والنوم وتستويان في كـــل شيء .. ومع ذلك فهو يتجلد .. ربما اكثر منك .. أنه عنصر خاص من عناصرهم .. من خيرة رجالهم يكون .. ولا بد أن تفك صمتـــك

ذات يوم .. سيحدثك هو عن سيرته ونضاله ومكابداته ثم ستحكي أنت .. ولكن هل تصدق يا وهب أن رفيقا منا مع ذلك لم يتورط في الفـخ ؟

كنت قد استغـرقت مع صورة الغـرفة التي تفنن سيف في عرضها ، حتى أفاقني سؤاله ، فازددت رغبة واهتماما وانصاتا ، وبدوت كطفل غرير يتلقف الحكايا الغريبة الماتعة . قال :

ــ أتدري كيف كشفنا جاسوس غرفتنا ؟

لم ينتظر جوابا . قال أنه أثار نقاشا مرة حول صوفية الثوري ورومانسيته ، فتحمس أحد السجناء وامتدح تلك الخاصية في المناضل فعارضه سيـف ، وأكد على علمانية ومادية الثـورة ، وعندئذ ردد السجين الآخر كلمات الروحانية والكفر والغيبية وما أدراك وكـان حارا على نحو انشدت معه الابصار جميعا صوبه . قال سيف :

ــ المنظمة الثورية التي تربينا فيها لا تخرج صوفيا أو غيبيـا يا عزيزي .. أما القول انه مبتدىء فمردود لانه لو كان كذلك لما وصل الى هنا .. انه ليس منا .. غريب ومدسوس حكمت عليـه العيون المتحلقة دون أن يتفوه أحد .. وفي اليوم التالي سحبوه من الغرفة بدعوى انهيار عصبي ..

كنت قد سهوت عما بدأ فيه سيف ، لكنه كان مصرا على أن يقدم حديثا كاملا ..

عاد الى شرح مراحل السجن ، فضحكت وأنا أتذكر كنان وهو يؤكد ضرورة الحكاية للسجين .. كانت المهاجع آخر المراحل كمـا قال .. ذكرت له أني علمت بذلك منذ زمن ، وأردفت انهم أغبياء اذ يحبسوننا معا ، فقـال :

ــ انك جاحد .. بدلا من أن تشكرهم على هذه النعمة تصفهم بالغباء .. وضحكنا .. أدركت وأنا أتأمل الصمت الذي أعقب ، أن السجن مع هؤلاء الرفاق نعمة حقيقية ، تستحق الشكر ، وتساءلت:

كيف تكون الحرية معهم اذن ..؟ »

اليوم الثـــاني

« أرعبتني الاصوات التي أمقت على تدافعها فجأة .. أدرت وجهي ناحية سنيف مستفسرا ، فرايته يقفز مع آخرين الى أحد الرفاق الذي يتسلق نافذة المهجع مستندا الى الرف العلوي ، حيث تصطف الحقائب . ساورني شك في أن تكون أعصاب الرفيق المتسلق قـد انهارت بغتة ، وانه يفكر في هـــرب مستحيل على هـــذا النحو .. سمعتهم ينادونه « أبا الفوز » ويحيونه .. لم يكن وجهه قد ارتسم في مخيلتي أمس .. استويت فوق البطانية وعجبت لانهم انصتوا تماما فور ما أشار اليهم .. رأيته يدني طـرف انبوب جلدي من اذنه ، ويتنصت .. طال الترقب بي حتى حسبت الامر لعبة مملة .. واخيرا نزل الرفيق أبو الفوز ، وقد تورد خداه . هتفوا جميعا ..

ــ هه ماذا سمعـــت ..؟

وراح أبو الفوز يقص باعتداد جملة من الاخبار العالمية . وعندما اتم الخبر الاخير قال :

ــ لن تفوتنا نشرة واحدة بعد اليوم .. واذا أراد أحدكم أن يرفه عن نفسه أيضا ، ويتمتع بأغنية أو موسيقى فمرحبا بــه .. أنا عمكم أبو الفوز .. وضرب على صخرة صدره فهللوا له ..

سمعت من يهمس ان أبا الفـــوز لبث منذ الفجر حتى هـــذه الساعة يجرب اختراعه ، وانه قضى عشرين فجرا آخر وهو يحاول . فلم أعد أستطع الصبــر :

ماذا صنع أبو الفوز ؟.. لقد ارتبت في عقله أول ما رأيتـــه كالقط هناك ..

قال عزت ، وكان أول من برح المجلس قرب النافذة :

ــ على أمتار من هنا يدير لنا بيت رئيس السجن ظهره .. وقد

اكتشف أبو الفوز منذ مدة طويلة أن صاحبنا مغرم باليقظة الباكرة ، والاستماع الى الراديو بصوت زاعق .. فصار هم الرفيق ان يخترع ناقلا يقرب الصوت من المهجـع .. وابو الفوز معروف في شركــة كهرباء البلد .. لقد افلح اليوم .. وصنع بوقا من الكرتون على هيئة خاصة وثبته في طرف النافذة ، ثم أوصله بالانبوب الذي ترى .. انه الانبوب الذي نستعمله في دورة المياه .. لكن الصوت يصل ضعيفا.. بيني وبينك غير مسموع تقريبا ..

أثارتني الحكاية حتى هممت أن انهض الى مجلس ابي الفوز ، لولا أن ميلي الى الاستلقاء قد غلب .. فأدركت أني لم أنم جيدا .. لعنت سيف الذي ظل يقتص من الليل الطويل حتى اوشك أن يجهــز عليه .. وقرأت في محياه هو الإخر ارهاقا من السهر .. لكننــي احسست أن هذا الانسان قد صار قريبا مني .. أكثر من كل الذين يحيطون بي .. وفكرت في أن هذا الاحساس سيعاودني كلما ازددت قربا من رفيق آخر .. يسمعني واسمعه من كل كلام .. لقد قال سيف انه لم يعرف أباه ولم ينشأ في مدرسة ، سار من « الكتّاب » الى دكان عمه النجار ؛ وهناك تعلم كل شيء .. وهالني أن يكون في دكان نجار بسيط قراءة وكتــابة وحرفة ، وزبائن فقراء وآخـــرون أثرياء ، وذلك العم الذي يحيا الاستغلال من حديه ، فلا هو يرحــم زبونا ، ولا يرحمه تجار الاخشاب والمواد ، ولا أصحاب المكنات .. تلك كانت مدرسة سيف .. وعلى الرغم من انني حسدته عليهـــا ، فقد تألمت لحرمانه ... ومن الدكان الـــى بؤر المنظمة قطع الدرب قفزة واحدة .. قلت له : انك كنت تبتغي الفرار من الدكان ، فاحتد وقال : وماذا تبتغون وانتم تطيرون الى مكامن المنظمة في كل مكان غير أن تفروا من فساد دنياكم .. فصححت له :

ذلك السبب الاول . ولقد ظلت صورته وهو ابن العشرين ، يأتي ذلك كله ملء كياني ، منذ أن صمت ، ونوينا أن ننام .. الا انني

لم اتردد في تذنفه الان ، وانا أرى مدى ما اذى السهر ..
كانت المجموعات قد اخذت تتشكل في انحاء المهجع ، بعد أن خف وقع اختراع أبي الفوز ، ولكن الاخبار التي نقلها ، كانت الحديث الطاغي .. لقد اتصل المهجع بالعالم الخارجي .. أبو الفوز ، والاختراع .. واغتممت اذ تصورت انه لم يكن ثمة اية صلة في الماضي بين المهجع والخارج .. وفي هذه الاثناء ، كان الباب ينفتح ، وسمعت من يقول منا :
لقد آن أوان العمل ... ولم تكن ساعتي تتحرك اذ ذاك .

**

كنت آخر من برح المهجع .. وقد حاولت ان افهم سبب الحيوية التي دبت في الرفاق جميعهم فجأة ، منذ اخذ المفتاح يلعب فسمعت حكايات الافطار ، والحمام وشطف باحة المهجع .. ورأيت كلا من الرفاق ينقب في حقيبة أو صرّة ، ويهرع نشطا الى الخارج . وهناك، في الباحة الواسعة ، وجدت أن عدداً كبيرا من الرجال قد اجتمع ، وان أبوابا عديدة مشرعة ، تقابل أو تجاور باب مهجعنا ، وتماثله.. وقد علا الهرج ..
ــ هل الاخرون رفاق أيضا ؟
سألت الرفيق هراج ، الذي كان الى يميني واقفا يتأمل . قال:
ــ أجل أيها الرفيق .. هذا الجناح مخصص بكامله لنا .. وأعتقد أن أغلب من في السواليل أو الاجنحة الاخرى هم منا ايضا .. ثم ضحك قبل أن يتابع :
ــ لقد انصرفت الينا السلطة انصرافا كليا .. لا اللصوص ولا القتلة ولا الذين يلفون ويبرمون على قوانينها .. نحن الان أهم أيها الرفيق ..
وبدأ الافطار .

تربعنا على الارض منتظرين أن يطوف بنا السجين المناوب . كان نصيب كل منا كوبا ضخما من الشاي المسود الذي تطفو على صفحته بقع صغيرة من اثار الدسم .. لقد كان الكوب نفسه يستعمل في الغداء أو العشاء من أجل السوائل .. قطعة خبز منتفخة ، متحجرة الاطراف ، وقطعة متواضعة من الحلاوة الهشة .. كان اقبالنا على الطعام مفاجأة لي .. وقد أبصرت أكثر من رفيق يخرج من احدى مناطقه السرية مواد أخرى ، يضيفها الى حصته .. أسرّ في أذني الرفيق هراج :

ــ الحق يقال : ان الحكومة ــ كما علمت ــ تخصص مبالغ معقولة من أجل طعامنا ومعيشتنا .. الا أن الاخوان (وأشار الى عدد من رجال الشرطة ينتشرون قرب مدخل الباحة وابواب المهاجع) بطونهم عزيزة عليهم .. الا ترى الى كل برميل فيهم ..؟

انتهت عملية الازدراد سريعا .. وتولى أبو الفوز توزيع أفراد المهجع الى مجموعات .. كما شرع آخرون يقسمون رجال المهاجع الاخرى ..

كنت أراقب بعجب . وببلاهة . وكنت مطيعا على نحو لم أعهده من نفسي قبل اليوم .. اخذ الرفاق الذين تولوا القسمة يأمرون ، بينما كان رجال الشرطة لا يزالون يسندون الجدران والابواب ..

لم اكن أعلم نوع العمل الذي ينبغي أن تنجزه مجموعتنا .. لقد اتجه بنا الرفيق عزت ، وكان على رأسنا ، الى الشرطي الذي يقف قرب مدخل الباحة ، وهناك ، تقدمنا الشرطي صامتا ، وقادنا الى غرفة ضيقة مسوّدة ، وقعت فيها على بوابير وبراميل صغيرة ، غلفها دبق الشحوار .. وكانت في احدى الزوايا كومة عالية من الثياب ..

قال عزت ، وكان الشرطي قد أخذ يبتعد :

ــ أولاد الكلب .. في حضون امهاتهم كانوا يتدللون كما نددللهم

.. كانت سراويلهم تبيض كل اسبوع مرتين ؟..

وتفل ... وتفل اخرون وهم يوقدون البوابير أو يقلبون الثياب . وفيما أخذت النار تشخر ، وماء الحنفية الوحيدة يصفر ، علمني عزت أن بين الرفاق من سيتولى شطف مهاجع الشرطة ، ومسح الاسرة والابواط ، وغسل دورات المياه .. وان هذا يستمر عادة حتى العصر ، حيث تتأخر وجبة الغذاء ، خلافا للمواعيد المقدسة في السجن. وبعد الغذاء يأتي دور مهاجعنا وباحتنا وثيابنا وأجسامنا، ولكن ذلك لا يستمر غير ساعتين .. فهم لا يرضون أن تغيب الشمس ونحن لم نأو بعد .. وطمأنني أيضا :

ــ ستنام هذه الليلة ملء جفونك .. بسبب التعب ..

تمنيت أن أنام الان ، وكرهت أن ارضخ للغسل ، على الرغم من أنني جربته مرات ومرات طوال الشهور الاخيرة ... وكنت اباري فيه مسعد في بناية شورى .. لكنني انصرفت عما جال في داخلي.. (لان زمن التمني الباطل أعرف انه قد ولى .. وأما وقت الاماني العادلة ، فانه لم يحن بعد) .. »

ــ ٣ ــ

« لم تعذبني الحيرة من قبل مثلما فعلت بي منذ قليل ، وأنا أستمع الى الجدل الحاد في حلقة واسعة ، على رأسها أبو الفوز وسيف . لقد اضطررت الى السكون ، ورحت أداري في سري جملة من أحاسيس الشك والحرج والبلبلة . ولو اني خضت فيما تحمس له رفاقي لانفضحت بالتأكيد . كان النور بخيلا ييسر لظلال كثيرة أن ترتسم فوق الجدران خاصة .. وكانت النسمات التي تتسلل من النوافذ الحديدية العليا النزرة ، لا تؤثر في الهيئة الخاصة ، التي صنعت الجو عليها انفاسنا .. ومع ذلك فقد كان الضيق أو الحر بعيدين عنا .. وكان سيف يجدد عهدا سمعته يعلنه مرات منذ

نزولي في المهجـــع :
ــ لن أتزوج قبل أن أطمئن الـــى انتصار المنظمة انتصـــارا نهائيـــا ..
وكان ثمة رفاق اخرين يعلنون ذلك أيضا . الا أن أحدا منهم لم يكن حارا مثل سيف . لقد هزأ منـــه أبو الفوز ، فثار ، وأنقســـم المتحلقون الى مؤيدين ومعارضين . وقال أبو الفوز :
ــ لم يحل الزواج بيني وبين مهماتي لحظـــة .. ولا اولادي الخمسة .. انني القاهم وانا في داخل هذا السجن كـــل يوم .. ولولاهم ــ ربما ــ لم اكن مشدودا الى أمام بمثل هذه القوة ..
كان سيف قد قال ان الاسرة تشد الى الوراء ، وان قلـــب المناضل يجب ان يكون خليا الا من هم المنظمة » . ولم يكن هـــذا القول بعيدا عني .. لقد احسست انه ينقر على أدق الاوتار فـــي صدري .. كم تأرجحت قبل أن أمد يدي الى نور ؟
هل الاسرة تشد المناضل الى الامام أم الى الوراء؟هل ستكون نور عثرة في دربي ام دافعا جديدا يقلب مسيرتي ويطير بي ؟ وكان مسعد يؤجج النار اكثر ، وهو يؤيد أرتباطي بها تـــارة ؛ ويعارض اخرى .. والحق أن الحاح همومي المتصلة بها كان يخيف مسعد. وفيما عدا ذلك كان يحب نور هو الآخر ويدفعني اليها دفعا ..
قال هراج يخاطب سيف ؛ وقد كان متزوجا ايضا .
ــ ما دمت تهب نفسك للقضية على هذا النحو ، فمن المحتوم ان تهتم بكل ما يجعلك تعطي اكثر .. أليس كذلك ؟
اكد سيف هازا رأسه . تابع هراج .
ــ من الواجب اذن أن تتزوج ..
لم يكن السؤال قد اظهره معاضدا لابي الفوز . انتفض سيف وهو يستنكر . قال هراج ببرودة .
ــ ارجو الا تضطرني الى الشك في حالتك الجنسية ..

علا الخلط ، وبمشقة تميز صوت كنان ، وكان واهي الحماس للحلقة .

ـ هراج يريد ان يقول ان أغماض العين على الجنس لا يعني انصرافا كاملا للمهمة ..

قاطعه عزت موضحا بصوت مرتفع ، وكانا كليهما عازبين .

ـ لن يفيد يا سيف أن تصعد حاجتك الجنسية .. هل تريد ان تناضل بمنطق العلم ومعطياته أم لا ..؟ ها نحن غير متزوجين مثلك ، ولكن هل ندعي اننا لم نستحلم مرة واحدة ، منذ حجرونا في هذا القبر ..؟ من منكم جميعا يقول أنه لم يحلم بامراة منذ نزل هنا ..؟ اكشفوا عن سراويلكم لارى ..

كان الهدوء قد ساد قليلا ، حتى اذا انتهى عزت تناثرت عدة ضحكات ولعنات ، بينما أغضى سيف . وكنت أقرأ في عينيه سري .. هل يشكون في قوتك الجنسية وانت تؤكد تفانيك من اجل المنظمة ؟ هل تشك في اخلاصهم للقضية طالما أنهم يحلمون ان يحبوا او يضاجعوا او يتزوجوا او ينجبوا ...؟ لا .. نحن جيل خاص .. عبئنا ليس كباقي الاعباء .. لا الجيل الذي سبقنا ولا الجيل الذي سينعم بشقائنا مطالبان بالانصراف عن كل الاشياء ، من اجل المنظمة .. ومن اجل تغيير وجه الارض الكالح .. نحن وحدنا مطالبون .. خاطبت سيف في عيني وفي صمتي .. وارجفني ان تلتقي ابصارنا لحظة .. قلت هذا الكلام يا سيف منذ اليوم الاول الذي هفوت فيه الى نور .. وتقلبت فوق الشوك زمنا طويلا قبل ان أعزم على مفاتحتها .. كنت آتساءل .

أيكون من حقي أن افعل ؟.. وعندما فعلت ورحت اقصر ، صرت اسأل عن صحتي الجنسية .. هل انا ضعيف ؟ ام ان السياسة تهد العصب كما يقولون ؟ وعصبي مهدود يا نور .. عشر لقاءات لم اقبلها .. اتكون قد حكمت علي ؟ كان السؤال يلسعني

.. ولكي احمي نفسي منه قبلتها بعنف واصرار فيمـا بعـد .. لا الرغبة وحدها كانت تدفع .. وقد عجبت هي من انفجاري دفعـة واحدة . وبعد ان اجتزنا هذه القبلة استيقظت رغبات اخرى في اعماقنا ..

ايكون علينا أن نتعامل كحبيبين شرقيين ..؟ فأين التغيـير الذي ننشد ونحن نحيا نقيضه ..؟ وما هي حرمة هـذا الجسد ؟ اليس من حرمة الماضي الذي نرفض ؟ ومرة اخرى دفعتني الرغبة في التخطي والتأكيد اكثر من الرغبة في ممارسة الجنس ...وما رأيت انها كانت قصية عني في ذلك كله .. لكن السؤال طار فيما بعد الى المستقبل .. وصار يلح .. ويزداد الحاحا منذ ان اخذت المعركة تحتد بين المنظمة وبين السلطة .. هل ستنظرنا الايام حتى نبني عشنا يا نور ؟

لا تسأل يا سيف .. ابو الفوز بنـى عشه وعالـج سؤالـه الخاص .. كيف يكون العش في امان من الفقر والعسف ؟

(لنسابق الزمن) لست أدري من الذي بدأ ذلك .. هـي ام انا ..؟ ولكن ايكون ذلك حقا ؟ هذه الايام ليست ايام الزواج يـا نور .. هذا اوان الشد فاشتدي زيم .. هذا اوان الشد فاشتدي زيم .. أنت تدركين ذلك في اعماقك .. ليس لي في هـذا الوطن غير حبك والقمة والمنظمة .. اما سيف فانه يقول .

ان هذه الايام ليست ايام الحب يا نسـاء مدينتنـا التـي تتمخض .. وابو الفوز يرمينا بين الفكين اذ يسأل عـن (رفيقاتنا) وعن (العلم والنسل والجسد ..) لقد اضحكنا جميعـا عندمـا اقترح باسم سيف أن تتوقف عمليات الانكاح والانجاب حتى تنتهي المعركة .. سيف نفسه ضحك ملء عروقه.. لماذا لا تكون سربوهي مثل نور .. او نور مثل نجاح .. او نجاح مثل أم الفوز .. او ام الفوز مثل حبيبة عزت الفلاحة ..؟ كنت عاجزاً عن أن اضع نفسي

في سباق مع الزمن .. وكانت عاجزة مثلي .. ماذا يجدي ان نتعزى ..؟ في الشهور الخمسة الاخيرة ، لم يكن حتى اللقاء .. كانت سربوهي تأتيني بخفق قلبك يا نور ووهج عينيك .. ولئن كان يمكن على كل حال ان نلتقي حينذاك ، فهل يمكن ذلك منذ مساء عابد الاخير ..؟ قلبي لا يفتأ يهرب اليك يا نور .. ولكنني أسأله واسألك ان كان من الخير الا تظلا مشدودين .. والمستقبل الذي ترين يهجم علينا ..؟ من يدريك متى يكون خروجي من هذا السجن ..؟ هل سمعت بجول ؟ وهل سمعت بنذير ..؟ صحيح انهم ساكتون عنا في المهاجع لكن ماذا يضمن أن نلتقي بعد يا نور.؟

كانت الاسئلة تطرق صدغي وانا بينهم .. فعندما خلوت بعد التاسعة ، فكرت للمرة الاولى في أن ينفك ما بيني وبينها .. كان كلام ابي الفوز يقنعني .. وكان كلام كنان وعزت أيضا ، لكني ظللت رغم ذلك أميل الى سيف .. واهفو الى نور .. واقول لا يجب أن تقرن دربها الى دربي .. سربوهي ارتبطت بالمنظمة والسجون والعذاب .. وما يدريني اين هي الان ..؟ أما نور فبأي حق اقف عثرة امامها ..؟ وودت ان اقول الى أبي الفوز وسيف معا :

ـ أن الواحد يكون عثرة في درب التي يقترن بها ، وينغص عليها حياتها .. وليست هي فقط عثرة في دربه .. ولكن الامر ظل رغبة طارئة ، وتساءلت عما اذا كان تفكيري الجديد في أمري مع نور سيظل مجرد رغبة طارئة ، وداهمني احساس خفي بالذنب فاستغفرت منها قبل ان احاول النوم » ..

ـ ٤ ـ

« دبت في مفاصلي رعشة خاصة وانا اسمع اعلان البوق الصباحي .

على جميع السجناء ان يستعدوا لزيارات ذويهم هذا اليوم. اتخذت ادارة السجن كافة الترتيبات من اجل ذلك.. تبدأ الحلاقة في الساعة الثامنة . مدة الزيارة للشخص الواحد عشر دقائق .. يعلن عن موعد الابتداء في بلاغ لاحق .. يحظر على السجناء أن يذكروا أي كلمة تتعلق بحياة السجن او قضية السجين أثناء الزيارة ..

بومضة عين أخذنا الانصات جميعا .. واتسعت حدقاتنا وهي تلاحق الصوت الخشن .. أيكون هذا حقا ..؟ ما أروع هذا الصباح ..!! صمت مطبق وذهول وعجب .. ثم تعالت تهليلات الرفاق فجأة .. وغمرتنا عناقات حارة .. وقفز كنان في السماء .. باللفرحة .. لقد عدنا اليك ايها العالم المحبوب .. افتحي لنا صدرك ايتها الدنيا .. أين كانت حرقة هذه الوجوه مخفية ؟ وأين كانت هذه اللهفات التي تفجرت من كل لمعة عين ورعشة قلب ..؟ لقد كان يخيل الي أن كل من في المهجع قد سلم اخيرا بانقطاعه الكلي والدائم عن هذه الدنيا .. الاهل والاصدقاء والامان في عالم آخر لا تصله بعالم السجن اية أسباب .. قال ابو الفوز ودمعة كبر تطفر من مقلتيه .

ـ سنين يا ام الفوز .. سنين يا اولاد .. حق للشوق أن يكبر ..

فضحكت من نفسي .. لم يكن قد مضى على أختفائي أكثر من نصف سنة .. وفي السجن لم أكن قد تجاوزت شهري الاول كثيرا .. فكيف بالذين لفهم هذا المكان منذ سنةاو سنتين او ثلاث؟ وكيف بالدين طوتهم مخابيء الناقورة والغزال والعمارة وكهوف الاحتياط وعشرات بؤر المنظمة ومراكز النضال السرية الاخرى.. منذ ان قامت الى هذا اليوم ..؟ لا يحق لي أن تكون فرحتي كبيرة كما لهؤلاء .. لا شوقي الى نجاح ، ولا لهفتي الى امي ولا مسعد

ولا ابي تؤهل ان اكون مثل ابي الفوز .. أو مثل هراج على الاقل، وهو ، عداي ، احدثهم في السجن ..

كانت عمليات الحلاقة تنجز بسرعة ورشاقة .. لم يتركوا فوق رؤوسنا شعرة وكذلك أختفت اللحى ألتي تفاوتت في زمن الولادة .. أما ثيابنا فقد جهدنا في ان تكون افضل ما يمكن .. وقد اوصت ادارة السجن مرارا بذلك .. كما حذرتنا من ان نسلم اية قطعة تحمل دما أو ما شاكل .. وصرنا على اكمل أستعداد قبل العاشرة .. وراحت الذكريات تنثال وتعز كما لم ار من قبل. لقد تفجر الحنين كله فجأة .. ومرة واحدة. حتى ما كان مستهجنا من اناس الماضي غدا عزيزا ... وقلت لا شك ان أمي ستبكي .. بل ان أبي نفسه قد يفعل .. وسيحرقني بكاؤهما .. لكن نجاح ستظل ملاذي .. نجاح التي صلبت في أوان الغضاضة .. ولم تلن لعبد ألمنعم وهو في أشده .. وابتدات الزيارات وأخذوا ينادون اسما تلو الاخر .. وفتح الباب مرة اثر مرة .. وبين ربع ساعة وأخر كانت تعود الدفعة محملة اليدين والعينين .. وأنشغل كل عن رفيقه بشجونه .. بينما كنت مع الذين لم يناد عليهم بعد ، نترقب ونتشوق ، ونبلع الدقائق الثقيلة على مضض .. وكلما تحرك البوق قال ألواحد منا ، دون ان يسمع له صوت « ها ... هذا اسمي .. لا .. أنه الاسم التالي .. لقد جاء دوري .. فاذا خرس البوق تكوم ألفيظ المكبوت في احدى نواحي الصدر .. لكن الامل الواثق لا يلبث ان يغلب ..

وكان الذين يرجعون يتباطئون في مشيتهم ، وفي كل حركة من حركاتهم .. كانوا يبدون بكل جلاء مشدودين الى الخلف .. لا يريدون ان يدخلوا .. أو لا يريدون ان يعودوا بمثل هذه ألسرعة .. هل نقعت غلاتهم ..؟ هل انطفأت ألنار في الحنايا ألمتاعة ؟ وكانوا يستعيدون وهم يتلون ما عادوا به كل لحظة من لحظات اللقاء

الفريد .. ولا تشبع العيون وهي منكبة فوق الاشياء العزيزة الصغيرة ..

كنت مع المنتظرين الذين صاروا قلة ، نهدىء قلقنا بمراقبة رفاقنا اولا .. وكنت اتخيل ما سوف تأتيني به أمي او اختي واتبسم واتلذذ .. لو أن نور تكون الان أيضا معهم.. لو انهاتنتظر دورها هناك كما أنتظر دوري هنا .. ستكون قد ارهقت من طول اللبث والترقب .. وامي ايضا ستكون ساقاها قد كلتا .. منذ اختفى مسعد قبلي اصاب الوهن ساقيها .. ولكن العدد الذي ينتظر معي راح يتناقص على نحو مفزع .. حتى حسبت مرتين انني صرت وحيدا .. ايعقل أن يكونوا قد نادوا على كل هؤلاء دون ان يذكروا اسمي .. الا يمكن ان يكونوا قد ندهوا وهبا وانا غارق في لجة اضطرابي فلم اسمع ..؟ ولكن هل أصاب الصمم أولاء الذين ينتظرون أيضا ..؟ ورحت اتساءل عن سبب تأخير دوري الى هذا الحد ؟ أيكونون اتبعوا التسلسل الابجدي في النداء ؟ أن اسمي متأخر حقا ولكن الم ينادوا على أحد يتلوني في سلم الابجدية ..؟ طفت في وجوه الرفاق فرايت ياسر الهلالي مع العائدين .. اذن قد يكونون أتبعوا تسلسل الارقام في السجن .. وانا اخر من دخل .. لم يأت الى هذا المهجع احد بعدي..طمأنني هذا الخاطر .. وعاودتني بهجة الامل ، الا ان الشكوك ظلت قريبة .. أن في السجن مهاجع كثيرة ، وغرفا خاصة ، وسواليل متنوعة .. الا يكون قد جاء الى احدها بعدي سجين أو اكثر ؟فاذا ما كان قد نودي على هؤلاء ، فكيف يكون حالي اذن ؟ هل يتعمدون حرماني تعمدا ؟ الا زلت اعامل معاملة خاصة ؟ أن ذلك زال تماما منذ اليوم الاول في المهجع .. اذن هل يكون أهلي لم يأتوا ..؟ ايكونون جاهلين بمكاني ..؟ أن المنظمة تبلغ لا بد ذوي كل سجين اخباره أولا بأول .. فهل يكون الخبر تأخر على أهلي ..؟ كان ذلك

اخر ما دار في خلدي .. وكان اقسى ما واجهت .. كنت لا اريد ان افكر فيه .. لا .. ليس ذلك ممكنا .. وحدي من بين كل هؤلاء احرم ؟.. وثقل علي التصور في الوقت الذي كان البوق قد اخذ ينادي .. كنا خمسة .. الدفعة الاخيرة لا شك .. واحد اثنين ثلاثة .. لم يبق غير وهب وكامل .. وسمعت وهب .. اجل وهب .. لكن البوق سكت .. وتلبثت برهة مأخوذا .. لقد بقي كامل .. اكون قد اخطأت السمع ..؟ ايكون البوق قد تعطل في هذه اللحظة ..؟ ولم يعجبه ان يتعطل الا الان ؟ ونظرت حولي .. ان انظار رفاقي تنصب فوقي .. ولم امهل .. صرخ ابو الفوز :

ـ مالك كالابله .. اسرع قبل ان ينتهي وقتك ..

فنسيت عندئذ كامل وجريت .. ظللت أعدو والشرطي خلفي يجري ايضا ويقذفني بأصوات لم اتبين منها حرفا .. ولم اقف حتى صدني الشبك الحديدي الغليظ ، وارتددت الى الوراء .. ولم اصدق عيني .. لم اتكلم لاني لم اصدقهما .. بيد أن امي كانت قبالتي حقا .. ونجاح ايضا .. وابي .. وثمة رجل اخر ـ الى يمينهم ـ يحييني معهم .. ولم اعرف انه خالي الا في النظرة الثانية .. اخترقت اصابعي وأصابعهم عيون الشبك ، لكنها عجزت عن ان تتلامس .. وكان عليها ان تتراجع عندما يقترب الشرطي الحارس منها وهو يقطع عرض الباب ، بين الوجهين الشبكيين ، مراقبا لقاءنا .. غفلت تماما عشر دقائق .. تهت .. تكلمت وسمعت وضحكت وتألمت ورأيت ، ولكن دون أن اتدخل في ذلك كله .. كان ثمة شيء اخر في وهب يفعل ذلك .. وكانت الصحوة فظيعة .. انتهرني الشرطي ، وشدني وعندئذ ابصرت امي تبكي فانعصر فؤادي .. اما نجاح فقد ظلت تضحك .. ووحدها كان صوتها نقيا ومسموعا .. كانت الغصة تقطع كلام ابي وامي .. اما خالي ، فلم افطن الى ما قال الا بعد أن كان باب المهجع يوصد خلفي .. ووجدت

كلماته تزيد من صحوتي ، وهي تتوضح في مسمعي .. لماذا تفعل بنفسك يا ابن أختي هذا كله ..؟ لماذا تفعل بأهلك ..؟ انظر الى هذه المسكينة .. وهذا العجوز .. جن اخوك فجننت أنت أيضا.؟ هل تريدون ان تصلحوا ما عجزت عنه السماء ؟ هكذا كان يقول عبد المنعم .. لقد حلت روح عبد المنعم في خالي اذن .. لماذا استمعت الى ذلك الكلام ؟ لقد رددت على عبد المنعم فهل عجزت عن الرد على خالي ..؟ والفيت نفسي انسحب من سعادة عزيزة ، لافور غيظاً ، واشتم قرابتي ، ونسبي ، والثراء الذي أفسد ذلك المغترب الذي صار يلعب بعشرات الالوف .. وقد كان لا يملك القروش .. ووقعت عيني وأنا في قمة انفعالي على كامل .. كامل الذي ظل وحيدا بيننا . بلا اهل .. ولا أحباب .. ولا لقاء .. كان مطرقا وكئيبا .. وربما كان يبكي .. انقبض صدري أكثر .. وغادرتني اخر قطرة من السكرة التي اجتاحتني منذ لحظات .. وعندما قلبت في وجوه الاخرين ، وجدت الحزن يغلفهم جميعا وهم يسترقون النظر الى كامل ..

ايجب أن تكون نهاية هذا اليوم على هذا النحو ..؟ »

— ٥ —

هبت على المهجع منذ الضحى ريح خاصة .. لم يعد الجو الصيفي خانقا .. ولا الكثافة استمرت مزعجة .. لقد دعا الرفيق كنان الى اجتماع حزبي هذا العصر ..

تمددت عقب الغداء مباشرة فوق ارض الباحة ، وكان حولي سيف وعزت وقبالتي ابو الفوز ونصري وآخرون ..

قلت :

ـ ان وقتا طويلا قد انقضى على اخر اجتماع ..

قال عزت قبل أن تأتي بفترة والاجتماعات مهزوزة ..
قطع سيف نيتي في الاستفسار وقال :
ــ اجتماعات السجن دائما في مد وجزر .. تنتظم تارة وتفتني ، وتتسيب تارة وتفقر ..
قال ياسر : خارج السجن تمر الاجتماعات أحيانا بمثل هذا.
تابع سيف : قد تمتد القطيعة مع الخارج شهرا وشهرين .. والرفاق الذين عاشوا هنا سنة او سنتين قالوا كل ما يريدون في تجاربهم أو في سواها .. ولذلك يكون الجزر اذا لم يكن التواصل مع الخارج منتظما ومضمونا ..
كان باديا منذ اللحظات الاولى التي اعقبت نهاية زيارات ذلك اليوم ، ان كنان قد ظفر ظفرا عظيما .. لم تستطع عيناه ان تكتما. ولا تلميحاته .. حتى أعلن موعد اليوم .. قلت :
ــ ان الزيارات ستيسر علينا الامر كثيرا ..
فقاطعني عزت :
ــ ان هي استمرت ..
قال سيف وقد اضطجع :
ــ ان الانشغال الكامل داخل السجن بأمور المنظمة .. يضفي على الحياة فيه معاني خاصة .. معاني عظيمة .. تصوروا .. نحن في عقر دار العدو أوثق اتصالا برفاقنا وبشعبنا وبقضيتنا .. لسنا عاطلين كما قد يظن .. ولا نتوقف ابدا .. انننا ننفذ خطانا داخل السجن ..
قلت : بذكر حالنا بحال المقيمين منا في اسرائيل ..
وكان قد انضم الينا الرفيق هراج فما أن توقفت حتى اتجه اليه ابو الفوز من الطرف الاخر وخاطبه بصوت عال :
ــ بعد ان فتحوا باب الزيارات سيخف العبء عنك يا حضرة النطاسي البارع والصيدلاني اللامع ..

ضحكنا جميعا ، اما هراج فتبسم ببخل ، ولم يفه ، وكان الرفاق يلهجون دائما بالدور الذي لعبه في أحلك أيام السجن .. ويذكرون صيدلته التي زودت السجن بالادوية وبغير الادوية ، قبل ان يدخله هو .. كانت حبوب (الفوار) تحشر بنتف النشرات تنير سواد الايام الصعبة .. وكانت العلب المختلفة تزود بشروح اضافية خاصة دون ان تكشف عين الرقيب من سرها شيئا ..

وكم كان ذلك يشد أعصاب الرفاق في اول عهدها .. لقد كان هراج طبيب المهاجع ، وصيدلانها ، ورسولها معا .. ولكن هذا لم يكن يمنع الخطر او يؤخر الحذر .. وكانت المنظمة بالتالي تتبع تكتيكا خاصا .. فمن المؤكد أن السلطة كانت تفترض امكانية الاتصال بنا ، على الرغم من الحجز الدقيق .. وكانت تثير بوسيلة او اخرى مراسلات موهومة واخبارا موجهة ، كما كان يوم اختفت سربوهي او صرع جول .. وهكذا كان صمت الفترة الاخيرة ـ كصمت الفترات السابقة ـ متعمدا ، على الرغم من الآثار التي يتركها والتسيب الذي ينتج عنه .

* *

ابتدأ الاجتماع في الساعة الثالثة تماما ، وكلف ثلاثة رفاق بمراقبة النوافذ العليا ، وكوة الباب . اخرج كنان ماسورة بنية صغيرة كبكرة الخيطان الدقيقة الملونة ، وأخذ يحلها بحذر شديد، بينما أشرأبت جميع الاعناق اليه كنت خارج السجن اطالع جريدة المنظمة السرية على ورق تبني ، وفي حجوم عادية غالبا .. اما الجريدة ـ الماسورة فلم اكن قد شاهدتها من قبل .. لقد اخذ طولها يمتد ، حتى قارب نصف المتر ، وكشف الخيوط الاولى سترها .. وانفتح العرض ثلاث مرات ، فاذا بصحيفة متوسطة ،

مفروزة بكتابة ابرية ، ولون خاص .

استعان كنان بأبي الفوز ، وساد الانصات والاهتمام .. « مع المناضلين الجزائريين داخل سجونهم .. اضراب ثلاثة الاف معتقل عن الطعام – ما معنى الجريدة الداخلية في سجون الرفاق الخاصة؟
– المعركة بين الجماهير ومنظمتها ، وبين النظام المتردي تتصاعد يوما اثر يوم .. – النظرية الى جانب الممارسة .

الى الذين يضعون النظرية فوق الرف بدعوى الانصراف الكامل الى الممارسة .. »

وادركت لماذا اختار كنان هذا الموعد المبكر .. لقد كنا في حاجة الى الوقت كله ... واستغرقنا الفيض الذي تفجرت عنه تلك الماسورة الصغيرة ..

اعقبت قراءة العناوين همهمة خفيفة ، قطعها كنان باعلان خطة الاجتماع .

– سأتلو الفقرة الاولى عن اضراب رفاقنا في الجزائر ، ثم تبدا المناقشة ..

لم يكن النص طويلا .. كانت الاشارة الرئيسية فيه الى العسف الاستعماري ، والتحدي النضالي ، وقد ربط ذلك كله بما تحياه هنا .. ولم يكد كنان أن يلفظ الجملة الاخيرة حتى اندفع سيف رافعا ذراعه .

– اقترح ايها الرفاق ان نضرب نحن ايضا في هذا السجن تضامنا مع رفاقنا لجزائريين ..

طاب رفيق اخر الكلام فتحمس لاقتراح سيف ، ثم دعا كنان الى دراسة الموضوع ، وكان أول المتكلمين من بعد ابو الفوز . قال:
– سنلطم سادة السجن والسلطة بأكملها لطمة قاسية ان نحن فعلنا ... تصوروا اننا ونحن في داخل سجونهم نعرف ما يجري في الجزائر ، وفي باريس ، ونضرب عن الطعام من اجل رفاقنا

المناضلين هناك .. انهم يتخيلون اننا قبرنا الى الابد ..
قال هراج .
ـ سيؤكد الإضراب معنوياتنا الهائلة .. بل اننا سنشد بذلك المنظمة كلها ..
وقال ياسر :
ـ ماذا سيقول آباؤنا وامهاتنا واصدقاؤنا يوم يسمعون عنا هذا كله .. يجب ان يصل خبر الاضراب الى كل الناس .. انه سيفجر دويا هائلا ..
وبدا لوهلة ان كل من في المهجع يريد الاضراب بقوة .. حتى جاء صوت عزت متباطئا ، ويكاد الا يسمع .
ـ لست أرى ان صحة جميع الرفاق ستتحمل ذلك ...
قاطعه سيف :
ـ هم يضربون حتى تتحقق مطاليبهم ولو امتد ذلك بهم دهراً .. اما نحن فسنضرب يوما واحداً تضامنا معهم ، وتقريعا للمتحكمين هنا ..

تابع عزت بلهجته نفسها :
ـ اعلم يا رفيق سيف .. لا تغرنك قدرتنا البادية على الكلام او المشي .. انت تذكر الانهيارات الفجائية التي كادت ان تقضي على نصفنا لولا اسعافات الرفيق هراج .. هل سينقلون مثلا من يغلبه الوهن يوم الاضراب الى مستوصفهم ...؟ اكاد اجزم انهم سيتركونه يموت امام اعيننا ان نحن فعلنا ... انظر الى الرفيق كامل ... وتطلعنا جميعا الى حيث اشارت اصبعه التي كانت ترتجف رجفات قصيرة وسريعة ، لا تكاد ترى .. ان كامل قد اخذ يذوي منذ اليوم الذي لم يزره فيه أحد .. لم تنفع معه عقاقير هراج ، ولا نقوط الفيتامينات التي تحفظها حقيبته احتياطا ..

وكانت ادارة السجن لا تسعف الا في حالة التردي النهائي .. تابع عزت ، وقد تحمس :

ـ الا يلزم أن نفكر بردهم ايضا ..؟

اعقب صمت قصير ، ولكن كان جليا تماما انه صمت مشحون .. قطعه اخيرا ابو الفوز مفنداً شكوك عزت ومؤكدا الاضراب ،وقد بدأ وهو يتكلم كمن يشاجر ، فلم ينتظر انتهاء كنان ، اذ قاطع بلطف باد :

ـ ان الاجتماع يفرض الاضراب .. وستحدد اللجنة موعدا قريبا ، اما ما طرحه الرفيق عزت فسنأخذ به جميعا .. سنحتاط لصحة بعض الرفاق وسنحسب لردودهم المنتظرة حسابها .. والآن لننتقل الى موضوع الجريدة .. اطرق عزت ، واطرق ابو الفوز بعد هنيهة .. وراح يحك صدغه وقد بدا انه يجهد نفسه في التفكير ، وكسا الشحوب وجه عزت ، وبدا ان انفعالا خاصا يرين على آخرين .. الا ان حديث كنان لم يلبث ان شد جميع العيون اليه .. قال :

ـ لقد رأيتم كم كان من المستحيل ان ندخل قلما أو ورقة او كتابا ..

رفع سيف يده وقال متعجلا :

ـ احسب ان تهريب بعض اللوازم قد صار ممكنا اثناء تبادل الهدايا والثياب في الزيارات المقبلة ...

قلت : سيكون علينا ان ننتظر آذن ..

قال ياسر : لو استطعنا ان نعرف امكانيات رفاقنا في المهاجع الأخرى .. رفع ابو الفوز رأسه ونطق بهدوء :

ـ لا بد ان تكون المبادرة الاولى من هنا .. واشار باصبعه الى أرض الاجتماع .. اكدت بعض الرؤوس ايمانها بذلك الا ان جميع العيون كانت تسأله « كيف ؟ ادار ابو الفوز ناظريه في وجوهنا ثم قال :

ـ لن نرمي بعد اليوم علبة سجائر فارغة ، والورق الملصوق على بعض المعلبات سنحفظه ، اما باطن علب الادوية يا رفيق هراج فسيكون هاما جدا .. لن ننتظر فرص الزيارات المقبلة .. لا بـد انهم سيشددون علينا بعد الاضراب .. يجب ألا نتفاءل بامكانيـة التهريب كثيراً .. كل اعواد الكبريت **التي تشعل تطفأ سريعاً** ، تطفأ سريعا ، ثم تستعمل في الكتابة . كل عود بكلمة ، او كلمتين . ونستطيع في غضون يومين ان نخرج جريدة من مئتي كلمـة علـى الاقل .. ماذا تقولون أيها الرفاق ..؟ تعالى التهليل لابـي الفوز اكثر مما كان في ذلك الصباح الذي شهد اختراعه الاول « راديـو المهجع » .. وبدت التجربة طريفة .. راقت الجميع .. حتى عزت رفع رأسه لاول مرة ، وكاد أن يبتسم .. وكان نور الشمس قـد انسحب من المهجع انسحابا كاملا أما اللمبة فلم تشعل بعد .. وتلك هي علامة العشاء المبكر .. فطن اليها حارس الباب وهو ينبه الـى خطها تقترب ، ويشير الى مفتاح الباب قبل ان تصل قرقعته .. فاختفت سريعا آثار الاجتماع ، بينما كانت سعادة حقيقية ، رغـم السجن ، والخشية ، تتراقص فـي العيون ، وتنتظـر آن يكمـل الاجتماع في وقت قريب .. ».

ـ ٦ ـ

رفـض كنـان ان يتنـاول افطـاره .. ولحـق بـه ابـو الفوز ، وكـان الى يمينـه ، ثم تلا سيف وياسر وكامـل وجاء دوري .. وانبهت المشرفـون عـلى الافطـار .. مـا شأن هؤلاء المجـانين ؟ ماذا اصاب عقولهم .. كـان مـن المعتـاد ان يمتنـع سجـين او اكثر عن وجبة ما ، وكان في هذا ما يغني وجبة الشرطي ويسمنها .. لكن الجميع يرفضون ان يتناولوا زقومهم هـذا الصباح ..؟؟ أمر المسؤول الموزعين بالتوقف في منتصف العد .. وادار عينيـه

بغيظ وحنق هائلين ، ثم سأل وهو يلفظ من شفتيه بسخرية تكاد ان تتفجر :

ـ ما الخبر يا حضرات ...؟

اعلن كنان باسمنا جميعا الاضراب .. كـان صوتـه جهوريا مؤثرا ..

ـ لا حاجة لان تتكلفوا في وجبات هذا اليوم .. ولا تكلفونا. ما نرجوه فقط هو ان تنقلوا خبرنا الى الرؤساء ..

ركبت البلاهة المسؤول وعناصره .. ولم يبد عليهم انهم فهموا كلمة واحدة مما قال كنان .. (تجوعون من اجل مساجين في آخر الدنيا ..؟ انه لجنون طريف حقا .. وما شأنكم انتم بذلك ..؟ الا يكفيكم هذا القبر ..؟)

واصدر المسؤول امرا نهائيا ـ كما سماه ـ بتناول الطعـام فاعترض كنان :

ـ الا يكون من الافضل أن تتجنب اثارة المتـاعب ..؟ اننـا سنضرب كما يحلو لنا .. أرجو ان تفكر في الامر ، وان تنقله الـى الرؤساء ..

سرت همهمة .. وتلفت الموزعون حولهم وتبادلوا مع رئيسهم نظرات حائرة .. وطال ذلك ، حتى استبد الترقب بنا ، ثم رأيناهم جميعا ينسحبون بمذلة واضحة ، لم ينفع فـي اخفائهـا الوعيـد المصطنع في كل حركة وخطوة ..

وراحت التخمينات تنطلق حول مـا سيكون فـي الدقائـق المقبلة .. ولما تكاثرت الدقائق دون أن تسفر عن شيء أنصرف عدد منا الى بعض الشؤون . واخذ الاضطراب يهدأ رويدا رويـدا .. حتى استطعنا ان نباشر يوما عاديا بعد قليل .. يوما كباقي الايام ـ سوى اننا نجوع فيه بمحض اختيارنا .. وقد كنا فـي الماضي نقسر على الجوع قسرا ..

امتلكنا الاحساس بالحرية ، ونحن نقطع دقائق النهار واحدة فواحدة .. انه نهارنا .. ونحن نحيا فيه على هوانا .. وكنت اقرأ في عيني سيف بريقا خاصا .. أليس هو الذي اقترح الاضراب .. انه يتوهج اعتزازا .. اسر لي وقد كنا متربعين الى جانب عزت الذي راح يرفو سروالا مهترئا :

ــ في نيسان الماضي اقترحت على الرفاق ان نحتفل بعيد العمال .. كان بيننا وبين العيد ستة ايام فقط .. وقد وافقوا مثلما رأيت منذ يومين .. وفي العيد شربنا من نبيذ عزت ..

التفت عزت فور ما لفظ سيف اسمه .. ويبدو انه لم يسمع سواه من همسنا .. فقد لعننا وهو يستفسر :

ــ ماذا قلتما ؟

ظننت وانا اسمع بنبيذ عزت انه كان يهرب المشروب الى داخل المهجع .. ولكن الامر بدا لي مستحيلا ، فسألت سيف ، دون ان يفكر احدنا بالرد على استفسار عزت :

ــ من اين خلق النبيذ ؟

كان صوتي مسموعا هذه المرة ، فقد حدق بي عزت لحظة ، ولكنه يتكلم ، بل اخذ يدعك القسم الذي خاطه من السروال .

قال سيف وهو يتجه اليه :

ــ أحك يا عزت .. ألم تفهم ؟

ضربت على فخذ عزت وقلت :

ــ خبر النبيذ ؟

فتوقفت يداه برهة ، ثم قال دون ان يرفع راسه الينا :

ــ كل ما في الامر انني كنت قد خزنت في علبتين كبيرتين من عاب المربى حصة بعض الرفاق في احدى الوجبات من العنب .. كان عنبا قذرا رديئا ولم يقبلوه .. وكنا نتسلى .. وبعد اربعين يوما اذا بنبيذ حقيقي .. قصدت تسلية اخرى .. لن نشرب في

السجن غير النبيذ المعتق .. ستكون لنا أفراحنا ونبيذنا .. ووافقوا على تعتيق علبة واحدة فقط .. وكان الشرطة يسألون دائما عن رائحة خاصة في المهجع .. رائحة خل .. فأحدثهم عن المرحاض وادوية هراج والعفن .. وسكت بعد ان بلع ريقه فقلت:

ـ حتى جاء آلاول من أيار فأدرتم الكؤوس ..؟

ضحك سيف وقال متحسرا :

ـ لم يكن نصيب الواحد منا يتجاوز بلعتين ..

ترحم عزت على الايام ألتي كان يعب فيها نبيذه الخاص حتى يرتوي . وقال أنه كان يصنعه في الكرم بيديه .. وكان ملاكا صغيرا في أطراف الجبل ، وله كرم كبير .. وبينما كان ريقنا يتحلب لروايته ، انفتح باب المهجع بغلظة ، وتقدم رئيس السجن يخبط، يتبعه عدد من الرجال، اصطفوا على موازاة الجدار الغربي، واخذ هو يدور في باحة المهجع ألدنيا ، مقلبا نظره في وجوهنا ، وكنا قد وقفنا جميعا ، حتى أنتهى الى قرب كنان ، وكان فوق الدكة ، أمر مستفزاً :

انزل الى هنا .

فنفذ كنان الامر نشطا ، ووقف قريبا من الرئيس الذي قال:

ـ وصلني انك قلت كلاما خطيرا هذا الصباح .. أسمعني ما عندك ..

اعلن كنان الاضراب ثانية ، ودب صوته ألنقي ألواثق فينا حماسة .. رد رئيس السجن :

ـ هذا السلوك المشين في نظرنا تمرد .. خروج على قوانين السجن المقدسة .. وانتم جيعا ـ ولفنا بذراعه ـ تعرفون عقوبة المتمرد والخارج .. اذا كان جنونكم في الشارع قد أوصلكم الي ، فان جنونكم هنا سيوصلكم الى جهنم ..

ودفع بكنان امامه آمرا أقرب رجاله الى آلباب :

ـ قده الى مكتبي ..

ثم اسمعنا باناة :

ـ ستلغى اعتبارا من هذا اليوم كافةالتسهيلات التي سمحنا بها في الفترة الاخيرة .. والتي كنا ننوي ان نسمح بها في المستقبل القريب .. لقد كنت على وشك ان اسمح لكم بساعة للتنفس والحركة في الباحة الخارجية بعد اسبوع .. لكنكم اثبتم انكم لا تفهمون الا بلغة هذا ..

واشار الى بوطه وغادرنا ..

قال عزت :

ـ لا زيارات بعد اليوم .. اطمئنوا ..

علق ياسر مستخفا :

ـ لقد تعودنا ..

قال ابو الفوز غاضبا ، وقد ارتفع صوته :

ـ سنقيم السجن ونقعده ان اصابوا كنان باذى ..

سمعت صوتا يقول ، لم اميز صاحبه :

ـ ستعودون الى السواليل قريبا بعون الله ..

رد ابو الفوز بعنف :

ـ الى جهنم يا سيدي .. انهم اعجز من ذبابة ..

همس عزت لي ولسيف ، وهو يتحسس جلده :

ـ سيكون الامر صعبا في البداية .. لقد انقضت فترة طويلة على سكوتهم ..

قلت : كما هي العادة .. الوجبة الاولى عسيرة الهضم ..

وضحكت وضحك سيف ، اما هو فتابع :

ـ ارأيت الى كل الذين استدعوهم عشية يوم الزيارات ...؟ بالله عليك كيف عادوا ..؟ على الرغم من انهم اعترفوا ان العملية كانت اقرب الى المداعبة اذا ما وازنتها بالماضي ..

لم يكن قد انقضى وقت طويل على ذلك كلـه ، مما جعـل دهشتنا عظيمة ، ونحن نسمع صوت المفتاح ، ثم نرى كنـان فـي فرجة الباب يتحسس اليته ، وقد بدا خده مكمودا من بعيـد .. هفونا اليه جميعا ، ونهض الجالسون والمستلقون ، وتلقفنا كل كلمة نطق بها وهو يسير الى مكانه » .

ـ ليسوا جادين في مواجهة الاضراب .. يجربون التهديد .. وقد يعيدون الكرة بما هو اقسى .. اطمئنوا .. سننجح .. مددت اظافري الى جلد عزت ، وقلت وأنا احكّ له :

ـ اطمئن ..

وعلا ضحك ، حتى ضجت في سماء المهجع قهقهة .. ليس من ناحيتنا وحسب .. وضاعت لعنات عزت وسط ذلك .. » .

– ٧ –

« ما كاد ابو الفوز ان ينهي عبارته الاخيرة ، حتى ضج المهجع بضحك صاحب هزّ الاوصال .. كان يقول ان السلطة قد قبضت في بداية الحملة الاولى التي شنتها ضدنا على ثلاثة مـن مهـربي الاغنام الى اسرائيل عبر تركيا والعراق .. كان ذلـك منـذ عـدة سنـوات ..

ولم يكن السجن قد افرد بعد لنا . فزجـوا المهربين معنـا ، وصرنا نجلد سوية ، واختلط الامـر عليهم وعلى ادارة السجـن والمحققين كانوا يقولون لهم اعترفوا فيرفضون الاعتراف فينهالون فوق رؤوسهم .. وأخيرا قالوا لهم : ان وقعتم على صك الانسحاب اطلقنا سراحكم ، فهرعوا للتوقيع .. وافلتوا .. وكادت أن تكـون فضيحة في السجن والسلطة والبلد يومذاك ..

كان ابو الفوز علامة في تاريخ السجن .. روى لنا حكايـة بنائه .. واخبار الذين نزلوه قبلنا .. لقد كان الورقة الاخيرة فـي

يد السلطة ضد كل خارج .. عسكريا كان ام مدنيا .. كان يجتمع فيه المهربون والجواسيس والقتلة الخطرون .. وكانت المنظمة تعلن انها لا تريد سجونا أكثر رهبة للخارجين ، بل تسعى من اجل ان تدفن النظام الذي ينتج هؤلاء .. ومن اجل ان نرفع راية اليوم الذي يقوم فيه مجتمع الأسوياء ومنذ ان شرعت المنظمة تسير على درب التغيير اخذ السجن يستقبل رفاقنا ، ويوما بعد يوم صارت السلطة تطلق اسراها المختلفين وتتفرغ لنا .. ورحنا نسمع بالسجون التي اخليت من نزلائها وافردت للرفاق .. وكان ابو الفوز يلون كل خبر عن تاريخ السجن باحدى نكاته الوافرة على الدوام .

اذن الهدوء الذي اعقب كلام ابي الفوز وضحكنا ببدء الاجتماع ..

لقد شهد المهجع في الاونة الاخيرة مدا هائلا .. صار كل نهار يطلع علينا بجديد .. انتهى الاضراب فبدات الجريدة الداخلية ويوم الفسل الاسبوعي انتقلت من مهجعنا الى المهجع رقم (٢ ـ آ) ، وكان اعتزازنا كبيرا اذ سبقنا المهاجع الاخرى .. وعوفي الرفيق كامل تماما .. وكان ابو الفوز ينشط من اجل اختراع جديد .. وقد وعد ان يقدمه في اجتماع اليوم ..

لم يكن فينا من يجادل في صدق وعده .. وقد كثرت تكهناتنا .. لقد يسر ابو الفوز للمهجع الراديو والجريدة فماذا تراه يخبىء؟ وهكذا كان صوته اول الاصوات عندما وصل كنان بالاجتماع الى بند المناقشات والاقتراحات .. قال وقد راح محياه يكتسي بجدية مهيبة منذ الكلمة الاولى ..

ايها الرفاق .. المشروع هذه المرة لن ينفع فيه عقلي وحدي .. ولن تنجزه يدي وحدها .. انتم هذه المرة جميعا يجب ان تكونوا معي ..

اثار تمهيده فضولنا ، وقد انعكست جديته في وجوهنا ... وانطلقت بعض الاصوات مستبشرة ..

ـ هه ابو الفوز .. نحن معك .. هات يا رفيق ..

قال ابو الفوز :

ـ لقد قضى الاوائل منا سنوات في هـذا السجن .. امـا احدثنا ـ والتفت الي ـ فلا زال في شهوره الاولى .. ولقد عشنا جميعا هنا ـ واشار الى ارض المهجع ـ وهنـاك ـ واشار الـى اجزاء السجن الاخرى ـ حياة واحدة تقاسمنا فيهـا الجـوع والحرمان واللوعة والمرض والقتل والامل .. لقد انصهرت ذواتنا حقا في بوتقة المنظمة والقضية لكن ذلك لم يمنع ان يظل فينا مثلا الرفيق هراج الذي لم تنقطع عنه السجائر المفلترة عشرة ايام الى جانب الرفيق كامل الذي افتقد طويلا اعقاب السجائر ...

بدا ان ابا الفوز سيخيب كل افتراضاتنا .. قال :

ـ صحيح ان احدنا لم يؤثر نفسه بأدنى الأشياء .. وان يكن قد تحمل في الحصول عليها وتكبد .. ولكن هل منع ذلك ان يكون عند بعضنا مثلا برتقالتان اضافيتان أو قميص حقيقي في بعض الاحيان ، بينما يعيش آخرون على خيالات ذلـك .. وصمـت الرجل .. ثم بلع ريقه قبل أن يرفع بصره الينا ، ويصل بـه الـى أقصى المجلس .

ـ ثم السنا نحن الذين نراهن على حياتنا من اجـل ان نلغي الفوارق ونقبر الملكية الخاصة ؟ كيف ترانا نرجو ذلك في الخارج ، ونسعى من اجله ، ولا نمارسه في مجتمعنا الخاص هنـا .. بين هـذه الجدران ..؟

ولفتنا اشارة ذراعه مع سائر انحاء وأشياء المهجع .. وكـان صوته قد علا ، والانفعال قد ملك قسماته ..

ـ ما رأيكم في ان نؤمم جميع ممتلكاتنا هنا ، ونوحد خزينتنا ،

وكل موارد ومصروفات المهجع .. ونبني خليتنا الاشتراكية في قلب السجن ..؟

خيم الوجوم فوق رؤوسنا ..

ثمة من أطرق ، ومن حك قذاله ، بينما اكتفى آخرون بالتحديق في وجه أبي الفوز الذي كان يطوف بنظره فوق وجوهنا جميعا ، وارتسمت علائم المفاجأة ، فوق كل السحنات .. حتى كنان بدا انه اجفل .. انه آختراعك الاكثر جدة يا ابا ألفوز .. لقد وعدت وما اخلفت .. انه لا يقوم بعقلك وحده .. ولا بيدك وحدها .. لا بد آن تعمل اذهاننا جميعا ، ولا بد أن تتضافر سواعدنا ايضا ..

كانت آثارة ابي الفوز حادة ، ونافذة .. لماذا لم يفكر احد من قبل حقا بتأميم السجن ؟ نحن نعيش حياة مشتركة .. ومصيرا واحدا .. تريد أن نخطط لذلك بانفسنا .. وان ندبره كما تقتضي مصلحة المهجع .. وتكره أن ترى السيجارة المفلترة في يد هراج بينما يتلهف كامل للعقب فلا يجده .. لا يرضيك أن ترى بين رفاقك وفي مجتمعهم الخاص أي تفاوت . هل يمكن ان نكون معا دائما مثلما نحن هنا ..؟ في المجتمع الخارجي تتشابك العوامل يا أبا الفوز .. لا نستطيع ان نطبق على انفسنا اولا .. ما هو عذرنا هنا ؟

كان كنان اول المتكلمين .. وقد بدا مهموما وهو يقول :

ــ أن هذا الامر يضع المصلحة الشخصية لكل منا على محك ماسي . انه بالاحرى يقفز بنا فوق سني التحول والتطور التي ستنقضي قبل ان نصل بمجتمعنا الى الاشتراكية .. انه امر خطير ، وقاس .. وسيكون تجربة فذة ..

وأعقب صمت قصير ، استأذن اثره عزت ، وقال وهو يجالد انفعالات غامضة مستعينا باشارة خفيفة من كفه :

ـ ان المسألة تحتاج الى وقت طويل .. ونقاش كثير .. ومن ناحية اخرى يتحتم علينا آلا نغفل عن ان الاساس آلذي تقوم عليه ليس ثابتا .. اقصد وجودنا في السجن .. انه وجود طارىء .. عارض . وان كرّت حتى الان عدة سنوات .. وآلا فمن منكم يقول اننا سنقضي باقي عمرنا هنا ..؟

وتبسم وحده . كانت ابتسامة باهتة انقلبت آلى تكشيرة صغيرة عندما الفت نفسها وحيدة .. لم أفهم ما يرمي اليه الرفيق عزت . فقلت أن كلام الرفاق يتسم بالعمومية ، وهو بالتالي غامض .. وتمنيت لكل من سيتكلم ان يحدد قصده تحديدا دقيقا وجليا .. رأيت عزت من زاوية عيني اليمنى يتلفت نحوي .. وكنت انوي ان اجيب على نظرته لكن ابا آلفوز اندفع مركزا بصره فوقي :

ـ طلبك معقول يا رفيق وهب .. بل وضروري .. سأتكلم باللغة العملية .. كم يبلغ عددنا هنا ؟ عشرة ؟ عشرين .. يفتح صندوق مالي عام للمهجع .. ويحدد نصيب كل رفيق حسب قدرته .. أنا مثلا يأتيني كل شهر خمس وعشرون ليرة انت يأتيك ثلاثون يفرض على كل منا مبلغ محدد .. أو يفرض المبلغ كاملا .. كامل لا يأتيه بنس .. طبعا لن يستدين حتى يدفع للصندوق . وتتولى لجنة خاصة الجمع والانفاق .. هذا رأي .. قد ترون تشكيل لجنة للجمع واخرى للانفاق .. آلهدايا التي ترد آلى كل منا .. من الحق أن احدا لا يستأثر بها حاليا .. لكننا نريد ان يكون بها للمهجع كله نصيب مرسوم .. وبصورة منتظمة لا كيفية .. وعلى هذا آلمنوال ..

انفرجت أغلب آلاسارير .. وبدأ جليا ان آلفكرة قد غدت اكثر وضوحا .. واخذت المناقشات تتوضح والاقتراحات تتالى .. وتشكلت اللجنة الاقتصادية للمهجع برئاسة آبي الفوز .. وصار

في المهجع لجنتان .. اللجنة السياسية ويراسها الرفيق كنـان ، واللجنة الجديدة .. وتقرر ان تخصص نسبة من ميزانية كل شهر لصندوق المنظمة العام . وان تدرس لجنتنا المهجع اوضاع الرفـاق المالية ، وتتصل بكل منهم ، كي يتحدد نصيبه في الصندوق ، بعد ان استبعدت مؤقتا فكرة تحويل كل ما يرد للرفيـق ، وسرى دم جديد في العروق .. ودبت حرارة نقية .. وكان الاجتماع قد بدأ مبكرا ، اكثر من كل الاجتماعات السابقة (**عقب الافطار بقليل**) ، ومع ذلك فان موعد الغداء كان قد ازف عندمـــا اضطررنا الـى التوقـــف .. » .

- ٨ -

« افقت على سيف يلعن ويجدف وهو يضرب ذراعـه فـي الهواء .. وقبل ان اسأله عما به رأيت عزت ، وكان في الناحيـة الاخرى ، يتقيأ بحدة ويتلوى .. وقد أصاب الرذاذ وسادة سيف وأحسست به فوق شعري ..

استويت في جلستي ، واذا بسيف يتوقــف لحظة ، ثـم يلتفت اليّ :

ـ هذه هي المرة الثالثة .. هل رايته هذا المساء ..؟

حدقت في وجه عزت .. كان قد شحب وهـزل على نحـو مريع .. قلت لسيف :

ـ متى بدأ ..

آخذ سيف يد عزت وهو يجيبني :

ـ الان قبل ان تنهض بقليل .. لقد غمر ذراعي ووسادتي .. عزّت عزت .. وراح يهز يد عزت تارة ، ويجس نبضها تارة اخرى

وهو ينده .. لكن عزت ظل صامتا .. وكان ضجيجنا قد أيقظ عددا من الرفاق في نواحي مختلفة من المهجع.. وأطلق تذمرهم.. ثم اذا بعزت ينطلق بقذفة رابعة فاقت حدة سالفاتها .. وكاد ان يستوي ظهره لها .. وما ان انتهت حتى علا أنينه .. وراح يضغط بجنون على أمعائه .. وأخذت الاسئلة تنهال علينا :

ـ من هذا .. ما به .. ماذا عندكم ؟..

كان نور الفجر المتسلل من النوافذ العليا ضعيفا .. وكنا جميعا نعلم ان الحركة في المهجع ممنوعة في مثل هذا الوقت .. ولكن أمر عزت تضاعف .. وركبنا الهم ..

عدا سيف نحو هراج ، فألفاه مستيقظا .. وسمعته وأنا فوق عزت يطلب بعض الحبوب .. قدم هراج مهرولا .. وتمعن في محيا عزت .. وفي القيء الاصفر الكريه .. ثم انطلق الى حقيبته حيث تقوم صيدلية المهجع الخاصة .. ومن هناك اصابتنا صرخته المرعوبة .

ـ يا للمصيبة .. من افرغ هذه العلبة ..؟ من أفرغها ..؟ انهضوا جميعا ..

ونفى كل بدوره .. استيقظ الجميع وواجهوا سؤال هراج وصورته الهلعة في لحظات ..

ـ انه هو أذن .. اطلبوا له الاسعاف .. ليس عندي ما ينفعه ..

وتهاوت القبضات المروعة فوق باب المهجع حتى حسبت انه سيتحطم لا محاولة .. واذا باصوات مغيظة تأتي من الخارج .

ـ ماذا هناك .. آخرس يا مجنون ..

ولم يتوقف الضرب حتى انفتح الباب ، واندفع الينا عدد من رجال الشرطة وهم يصوبون أسلحتهم نحو صدورنا ..

وقطع هراج الصمت المتوتر :

ـ عزت حاول ان ينتحر .. أنه بحاجة الى اسعاف فوري .. انه مخطر ..

انقضت عدة ثواني قبل ان يتقدم رئيسهم بحذر شديد الى حيث يتمدد الرفيق عزت .. قلّبه اولا بطرف بوطه .. ثم وقعت عيناه على القيء الذي ملأ المكان .. فتقزز ، ولبث برهة يمط شفتيه ويضغطهما . ثم مد يده ، ولكنه ارتد مجفلا فور ما لامس معصم عزت الذي اخذ يرتجف ، وقلب بصره فينا مليا ، ثم أمر وهو يعود الى رجاله :

ـ ليلزم كل منكم مكانه .. سنطلب الاسعاف فورا . لا اريد ضجيجا ولا جنونا .. عودوا الى نومكم حتى يحين موعد النهوض..

* *

ولكن ماذا تجدي الاوامر الغبية ؟.. ومن سيهدأ او ينام..؟ غطى التقطيب كل الوجوه وتغضّنت جباهنا ، وزفرت الصدور هما .. وكأن بؤسا مفاجئا قد حلّ ..

لماذا فعل عزت ..؟

كان السؤال يدوّي في رأسي وأنا منهمك مع سيف واخرين في ازالة آثار القيء ، بعد ان نقلوه الى مستوصف السجن .. وكان الشك في سلامته كبيرا .. لن يجدوا في المستوصف احدا .. خرافة المرض المناوب او الطبيب المناوب انفضح سرها منذ زمن .. هراج يؤكد أن الاسعاف اذا لم ينجده فورا فانه لن ينجو .. لقد تناول جرعة قاتلة .. وافرغ علبة الحبوب بكاملها .. كانت العلبة لا تزال تندعك في يد هراج .. وجم الجميع .. لم يكن ثمة ما يقال بعد ان رجا كنان الشرطي الذي قاد نقل عزت ان يعود بأي خبر .. ولكن ماذا يجدي الرجاء ..؟ أن الشرطي لم ...

يكلف نفسه حتى أن يهز راسه مؤكدا أو رافضا .. لكأنه لم يسمع ... مسكين عزت .. ان الحنق يدور ملء صدري ضده ، بقدر ما يتفجر الحزن .. كل المؤشرات كانت تؤكد في الاونة الاخيرة معنويات الرفاق العالية .. ليس في مهجعنا وحده .. بل ولا في هذا السجن وحده .. وكان التفاؤل يجنح بأخيلتنا الى انتصارات حاسمة ، ووشيكة .. لماذا انتحر عزت؟ في زمن الانهيار كان أصلب من في السجن .. كلهم قالوا عنه ذلك .. حتى ابو الفوز يعترف بأسى وحب ، ولوم .. فما الذي سبب التداعي مرة واحدة .. ؟

عدت الى ايام عزت الاخيرة .. وتساءلت هل كان انهياره مفاجئا هذا الفجر حقا ؟ ماذا كان بينه وبين ابي الفوز منذ أجتماع التاميم الاول ؟ وكيف وقفنا منه جميعا بلا استثناء اثر ذلك ؟ أليس ابو الفوز ـ ونحن من ورائه ـ من دفع عزت الى هذه الهاوية ؟ لقد عارض وحده مشروع التاميم ، فثارت ثائرة أبي ألفوز ضده .. (أنت ملاك صغير وسيكون من العسير ان تنسى ذلك بعد مئة عام ..) لقد بهتنا جميعا لثورة ابي ألفوز وعنفه .. وكأنما أطبق على عزت .. خرس الرجل .. عجز لسانه عن أن يتحرك .. حتى يده ناست قليلا ، ثم صمتت .. أليس من المحتمل أنه كان بيننا من سيقف مع عزت بشكل او باخر ، لولا خشية الفضيحة ولسان أبي الفوز ؟

لقد أغلظ كنان من بعد في الرد على ابي الفوز .. وألزم الرفيقين بالمصالحة امامنا . لكن كلا منا كان يدرك في قرارته أن جرح عزت ليس بالهين .. وانه جرح اليم .. ولم يتبادل من بعد مع أبي الفور حتى تحية الصباح .. ولكنا كنا واثقين أن ذلك سينتهي بصورة طبيعية .. حتى جاء دور عزت في المثول امام اللجنة الاقتصادية ألتي راحت تقدر مساهمة كل رفيق في صندوق

المهجع .. قال أبو الفوز لعزت انك تنكـــر الرقـم الحقيقي .. واستشهد بنفسه وباخرين .. كنت تقول لنا انهم يرسلون لـك ستين ليرة على الاقل كل شهر وها انت لا تذكر غـير اربعين .. وكان شجار اخر بين الرفيقين .. وطلبت مع سيف أن تتدخــل اللجنة السياسية وتحسم الامر .. لكن كنـان اكتفى بالتدخـل الشخصي ..، وفي الصباح التالي وصلت الى عزت علبة متوسطة من الكرتون وكان عليه ، حسب التنظيم الجديد ، أن يقدمها بتمامها وكمالها الى اللجنة الاقتصادية .. لكن أبا الفوز اتهمه باخفاء قسم منها .. وانفجر الموقف مرة ثالثة .. وقست الملاسنـة بينهما .. وطلب ابو الفوز التحقيق الفوري .. وعندما فضحت حقيبة عزت الحقيقة المرة ، سكت الرجلان ، الا ان عزت كان مسحوقا تماما .. لقد بكى وهو يقول ان أبا الفوز يستفزه دائما ، ويحاول ان يهينـه في كل مناسبة ولا يفتأ يتشكك فيه .. واعترف أنه لم يقدم على ذلك الا تحديا لابي الفوز . وثار في وجهنا جميعـا .. واتهمنـا بممالأة ابي الفوز ضده . وراح ينطوي على نفسه منذ ذلكاليوم.. ولم يحاول اي منا ان يمد يده اليه جاداً .. بل أن بعض العيـون كانت لا ترحمه .. لقد كان متهما على كل حال امامنـا جميعا .. كما أن حساسيته زادت حدة لادنى الاشياء .. أما ابو الفوز ، فقد تجاوز ذلك كله سريعا .. الا انني ظللت أحتفظ في سري باعتقاد خاص في انه مخطىء هو الاخر .. وقد الح علي هذا الاعتقـــاد اليوم .. واكاد اجزم أنني لن استمربكتمه أن وقع لعزت مكروه.. ان مطرقة قاسية يتناوب وجهاها صدغي . ألم يكن امام أبي الفوز غير تلك الدروب ؟ الم يكن امام عزت غير تلـك الدروب ؟ السنـا جميعا مسؤولين عما جرى ..؟

وكنت أسأل ايضا أن كان من حق عزت في كل الاحوال ان يفعل بنفسه ما فعل ؟ ايكون الامر قد صعب عليه الى هذا الحد ؟

وكيف ستقف المنظمة منه أن نجا .. ؟ بل كيف ستقف المنظمة من الأمر بكامله ؟ أليس كنان مسؤولا أيضا ..؟ لقد أقر مؤتمر العام الماضي بالاجماع أدانة آية محاولة من هذا القبيل مهما كانت المبررات .. داخل السجون أو خارجها .. وقال أنه ليس للرفيق ان يهون الى هذا الدرك ..

واحسست ان راسي يتمدد تحت ضغط داخلي ، حتى حسبت ان طبلا عليظا يقرع فوق كتفي .. وكنت قد امتنعت منذ البداية عن الكلام .. ويبدو انني قد امتنعت عن السماع ايضا .. فقد كانت الكلمة الوحيدة التي عبرت آذني طوال ذلك كله هي اشارة الياس ،وكان الى جانب الباب ..

ـ انهم آتون ..

كانت الشمس قد رسمت مربعات صغيرة وكثيرة قبالة النوافذ ، وكانت ظلال الشبك الحديدي في كل نافذة تحدد المربعات ، وكان وقت الافطار قد انقضى منذ برهة كما فهمت من ساعتي وانا انتظر أن ينفتح الباب وقد طالت معالجته .. كان رئيس السجن نفسه ، وكانت خلفه ثلة ..

قال والشر يقرن حاجبيه ويفجر عينيه :

ـ لقد بطرتم حقا .. كالبغال حين تعلف ولا تشتغل .. لن تدخل لك يا هراج حبة أسبرين واحدة بعد اليوم .. حتى لو مت انت او مات من في المهجع من اجلها .. هذا اولا .. وعزت انقذ ثانيا .. أما البقية (وتأنى طويلا قبل أن يتابع) فسأريكم اياها بنفسي بدأ من هذه اللحظة .. هيا اخرجوا امامي واحدا واحدا، واشار الى رجاله ، فهرعوا صوبنا ، وكانت خيزراناتهم وأسلحتهم ملء ايديهم ، وشرعوا يخبطون في كل مكان ، وفوق كل شيء . كيفما اتفق .. بينما كنا نتسابق نحو الباب ... » .

جـــزء مـــن

الفصل الـــرّابع

ابلغ وهب منذ الضحى بالاستعداد للرحيل بعد قليل .. وقد ضحك عندما أدار ناقل الامر ظهره وانصرف .. ماذا لديه حتى يستعد ؟ اجال عينيه في بياض الغرفة والاسرّة ، وقاوم احساسا خفيا بالاسى أوشك أن يستولي عليه .. لقد عوفي تماماً .. وامس حسدته المرضة على صحته وهي تنتزع آخر الضمادات والاقمطة .. مدّ أصابعه ، وأخذ يداعب اثار الدمامل الزائلة تحت ابطيه ، ثم نزل الى باطن فخذيه .. لقد كان الامر فظيعا حقا . فبين ومضة عين واخرى تفجر جلده .. وراحت تغزو انحاء جسمه المختلفة بقع حمراء صغيرة ، ما لبثت ان انتفخت وانقلبت نتؤات تشتهي الحك بجنون كأنها بذور الجرب .. كان ذلك منذ شهر تقريبا .. ولم تنفع نصائح هراج .. أما الحقيبة الصيدلية فقد أفلست منذ يوم عزت .. ولم يكن وهب يحسب أن الامر سيتطور على هذا النحو .. فقد ظل يرجو أن يبلّ ، في غضون

ايام قليلة ، على الرغم من تحذيرات هراج ، ومن ايمانه بالعلم والطب .. ولكنه اضطر اخيراً ان يطلب الاحالة الى المستوصف .. وكان طبيعيا في الزمن الاول الا تستجاب دعوته الرابعة .. الا ان ادارة السجن أخذت منذ يوم عزت تجيب طلبات الاسعاف سريعا.. وفي المستوصف استمع وهب ، وهو يرى بأم عينه مرضه يستفحل، الى حكايا جديدة عن سجنه .. جعلته يوقن ان كثيراً من الاسرار ستظل منغلقة دونه حتى اليوم الاخير.

كانت الرطوبة تلسعه في المهجع ، ولكنه لم يكن يفكر في أنها تتسبب له او لسواه بالروماتيزم.. وكانت الحصى الناعمة تنطحن تحت اضراسه في صحون البرغل او الرز ، ولكنه لم يكن يفكر انها ستخرش معدته او معدة أحد رفاقه حتى القرحة .. كيف نجا عزت هنا ..؟ تلك هي المعجزة التي أذهلته حتى عن دمامله.. لقد كان طبيعيا جداً ان تقوده اسعافات المستوصف الى الموت .. كما قادته هو الى تسمم الدم واستشراء المرض .. وفي ذات صباح تلقى امراً بالاستعداد للانتقال الى المستشفى العسكري الخاص رقم (٣٦) .

متى كان ذلك ؟ تساءل وهو يستوي في السرير .. كل ما عليه أن يقوم به هو ان يخلع لباس المستشفى ويرتدي أسماله هذا! هو كل ما يمكن أن يستعد به للرحيل . لقد دخل المستشفى منذ اسبوعين كاملين.. وفي الايام الاولى كانت جميع الوجوه مقطبة.. وكان يستقرىء في ذلك حالته الصحية .. وعندما زال الخطر وانفرجت الاسارير اخذ يتمتع بالحرية التي يوفرها له المرض والمستشفى .. لم يكن يجهل أن الحراس منتشرون في كل الاجنحة ، لقد رآهم يوم دخل على الرغم من ترديه الشديد حينئذ .. ولكن احساسا خاصا بالحرية استولى عليه هنا ..

ليست المواعيد في المستشفى مثلها في السجن .. ولا الكلح

يغطي الجدران .. وعبق المرضات يضمخ سمـاء الغرفة ، حتى العجوز منهن .. فقط لو ان رفاقه هنا .. ذلك ما تحسر عليه من كل ما كان بالسجن .. وضحك وهو يتأمل امنيته في ان يكـون رفاقه في المستشفى .. (هل اريد لهم ان يمرضوا حقا ..؟) .

**

في الساعة الحادية عشرة تقريبا ، وقف أمامـــه رجـلان يرتديان بزة مدنية انيقة ، أحاط بهما طبيب وممرضة ، وعاين بكل وعيه عملية الاستلام والتسليم . ثم ارخى يديه للكلبجة وتوسـط الرجلين وراح يتأمـــل وهـــو يغـــادر المستشفـى المـرات النظيفـــة الطويـــلة . وعـــب نفســـا مـلء الصـدر مـن الروائح المخرشة التي تفوح في كل الانحاء واحس انه يزداد تيقظا بفعلها .. ومر بعدد من المرضات والموظفين ، كانوا يتوقفون قبل ان يوازيهم ، ويتأملونه .. ولم يكن يحس بالحرج .. ثم وصـل اخيرا الى السيارة ، ورأى الحارس يؤدي التحية لاحد مرافقيـه الذي جلس في المقعد الامامي .

**

تذكر انه صعد على هذه الطريق مرتين قبل اليوم .. مـرة الى سالول (أبوريحة) ومرة الى المهجع وتساءل : هذه المرة الـى اين ..؟ هل سيعيدونه الى رفاقه ؟ واغمض عينيه وهو يتمنى ذلك من أعماقه .. واستطاع أن يتجاوز زجاج السيارة ، حيث ضياء النهار يملأ الدنيا ويتغلغل في كل المسام .. انه لا يزال قادرا على ان يتعرف الى الحياة والوجود .. على الرغم من كل ما مر به .. لم يستطيعوا أن يحذفوه .. ها هي الاشجار تحيـط بالسيارة ، وترمي ظلالها فوقها .. أما البيوت فانها تنتشر في كـل مكان ..

ثمة بنايات شامخة .. أعلى من بناية شورى بكثير .. وهناك ، في خاصرة الجبل ، تتناثر أكواخ صغيرة تذكر بكهف الاحتياط رقم (١) .. يقال ان كهوفا عديدةتمتدمن بطن الجبل الى تلك الاكواخ.. وملؤها جميعا طافرون من المدينة .. فقراء، أو من رفاقه. والناس ايضا رآهم ملء عينيه .. راى الصغار والكبار .. ومرت به نساء كثيرات لكن واحدة منهن لم تكن نور ، ولا نجاح ، ولا أمه .. كيف عرف ذلك ..؟ تمنى لو انه يعرف ذوي رفاقه جميعا .. لكان شاهد بعضهم الان اذن .. ولكان نقل البشرى الى المهجع ..

لا زال الناس يعيشون كما كانوا قبل أن يعرف هذه الطريق.. بل قبل ان تبدأ رحلته .. ولكن ما أدراك أنهم لم يتغيروا ..؟ ماذا تفعل انت ورفاقك اذن ؟ وماذا تفعل منظمتك ؟ هل تريدهم ان يبدلوا ثيابهم أو يتعلموا مشية جديدة ..؟ هلا غصت خلف الحجب وتأملت ..؟ واكب" الى الامام عازما أن يستوقف أول من سيمر به ، ليتأكد من حقيقة ما أجدّت الشهور والعذابات. الا ان السيارة بارحت يمين الطريق العام ، ودخلت في فرع جانبي شديد الانحدار .. لقد اقترب السجن يا وهب .. وها انت تقطع بطن الجبل .. وتخلف" مدينة السفح .. اقترب السجن . واقتربت القمة .. والمسافة المتبقية تكفيك لان تتأمل حبيبتك الاولى على نحو لم يتيسر" منذ كنت طليقا ..

ملأ عينيه وصدره منها .. لقد احبها قبل نور .. واتسعت مقلتاه .. وهفا فؤاده ..

كنت اصبح وامسي على مرآك .. انت الان اقرب الي" من كل المواقع التي عاينتك منها في الماضي ..

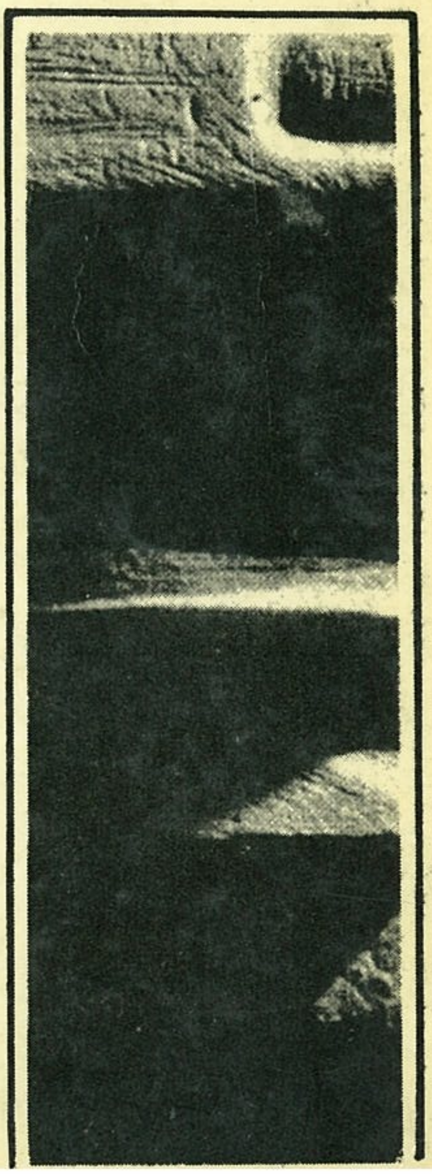
ماذا بينك وبين السجن ..؟

ماذا بينك وبين رحلتي الثالثة الى السجن .. ؟

السجن دونك يا قمة جبل المرام ..

وزفر مرتين .. كان الهم في الاولى .. وكان العـزم فـي الثانية .. واحس برعشة تسري في اوصاله .. لقد استنقع الماء الراكد في اقدم مدن العالم .. نتنت الارض في السفح .. محرم ان نلزم القرارة زمنا آخر .. اغمض عينيه وانشد :

ان الاوكار تطفر من سفح المدينة
ومـن سهلهـا ..
لم يبق الا ان نغادر الى فوق ..
أجل ، وما ان يكون الصعود
حتى تنتزع الاظفار ..
وتنمهد الدروب ..
وتورد الايـام ..
وتورد الايـام ..



الغلاف بريشة الفنان

طلال المعلا

الثمن ٨ ل.ل.